محمد باقر الداماد وآراؤه في الالهيات

م.د. رياض سُحَيب روضان(*)

الكلمـــات المفتاحية: أصــول الدين – علم الــكلام – التوحيد – العدل – النبوة – الإمامة – المعاد – الوجود بالقوة – الوجود بالفعل – العلة والمعلول – الجوهر والعرض

الْمُقَدِّمَةُ

قَلِيْلَــةٌ هِيَ الْعَبْقَرِيَّــاتُ الَّتِي تَبْزَغُ شَمْسُــهَا فِي سَــمَاءِ الْفِكْرِ الْفَلْسَــفِي الْإِسْــلَامِي، فَمُحَمَّدُ بَاقِــر الدَّامَــادِ يُعَدُّ مِنْ هَــؤُلَاءِ الَّذِيْــنَ مَثَّـــلُوا بِحَــقٍّ الْفَلْسَــفَةَ الْإِسْــلَامِيَّةَ بِأَجْمَــلِ صُوَرِهَــا، وَأَسْــمَى مَعَانِيْهَا، فَهُوَ عَبْقَــرِيٌّ وَلَدَتْهُ الْحَضَارَةُ الْإِسْــلَامِيَّة، فَكَانَ وَفِيًّا لَهَا، بِمَوْسُوْعِيَّتِهِ، وَذَكَائِهِ الْحَادِّ، وَفِطْنَتِهِ الْوَقَّادَةِ، إِذْ كَانَ مِنَ الشَّــخْصِيَّاتِ الْإِسْــلَامِيَّةِ الْأَلْمَعِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ وَلَا تَزَالُ يُشَــارُ إِلَيْهَا بِالْبَنَانِ، فَهُوَ مَعَ هَذِهِ الشُّهْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الْفَلَاسِــفَةِ الْمُسْلِمِيْنَ، الَّذِي لَمْ تُسَلَّطِ الْأَضْوَاءُ عَلَيْــهِ كَثِيرًا كَغَيْرِهَا مِنْ أَمْثَالِ الْكِنْدِي وَالْفَارَابِي وَابْنِ سِيْنَا وَغَيْرِهِمْ، فِي أَقْسَامِنَا الْفَلْسَفِيَّةِ.

لَقَدْ كَــرَّسَ الدَّامَادُ حَيَاتَهُ الْعِلْمِيَّــةَ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ لِلنُّهُوْضِ بِوَاقِعِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِي فِي الْعَصْرِ الصَّفَــوِي، وَبِمُخْتَلَفِ مَيَادِيْنِ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ التَّرْبَوِي وَالْأَخْلَاقِي.

وَأَرَى أَنَّ مِــنْ وَاجِبِي الْأَخْلَاقِــي وَالْعِلْمِي، الْــمُتَمَثِّــلِ بِدَافِــعِ الْبَحْــثِ، أَنْ أَعْتَزَّ بِالْفَيْلَسُــوْفِ الدَّامَادِ تَلْبِيَةً لِدَوَاعِي الْإِخْلَاصِ لَهُ، وَلِلْاسْــتِفَادَةِ الْفَلْسَــفِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّــةِ، وَتَعْرِيْفَــاً بِمَقَامِــهِ الْفِكْرِي وَمَكَانَتِــهِ الْفَلْسَــفِيَّةِ وَالْكَلَامِيَّــةِ، وَتَحْقِيْقَــاً لِــهَذِهِ الْأَغْرَاضِ، آثَــرْتُ الْكِتَابَةَ عَنْ هَذِهِ الشَّــخْصِيَّةِ الْفَلْسَفِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ، مُتَمَثِّلَةً بِهَذا الْبَحْثِ الْمُتَوَاضِعِ.

إِنَّ مُحَمَّــدَ بَاقِــرِ الدَّامَادَ غَنِيٌّ عَــنِ التَّعْرِيْفِ لِلْبَاحِثِيْــنَ الْمُحَقِّقِيْنَ، فَهُــوَ مُفَكِّرٌ بَارِزٌ فِي تَارِيْخِ الْفَلْسَــفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلْ يُعَدُّ أَحَدَ أَعْلَامِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي التَّارِيْخِ الْحَدِيْثِ، إِذْ أَنَّ مَوْسُوْعِيَّتَهُ فِــي التَّأْلِيْفِ، وَتَحْقِيْقَهُ فِــي النَّظَرِيَّاتِ وَالْمَبَانِي الْفَلْسَــفِيَّةِ وَالْكَلَامِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الْعِرْفَانِيَّةِ، مَكَّنَهُ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ تَصْنِيْفِ مُؤَلَّفَاتٍ قَيِّمَةٍ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي شَتَّى أَنْوَاعِ الثَّقَافَةِ، وَأَلْوَانِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ،

(*) جامعة واسط - كلية التربية الاساسية

تَنُـمُّ عَنْ عَقْلِيَّـةٍ عِلْمِيَّةٍ مَوْضُوْعِيَّـةٍ كَبِيْرَةٍ، يَجِدُ فِيْهَـا الْبَاحِثُ الْمُدَقِّقُ فُنُوْنًا مُتَنَوِّعَةً، مِنْ فَلْسَـفَةٍ، وَعِلْمِ كَلَامٍ، وَعِرْفَانٍ، وَأَخْلَاقٍ، وَفِقْهٍ وَأُصُوْلِهِ، وَنَحْوٍ، وَلُغَةٍ، وَأَدَبٍ، وَغَيْرِهَا.

إنَّ الْمَوْضُـوْعَ الَّـذِي آخْتَرْتُـهُ لِلْبَحْثِ، هُوَ دِرَاسَـةُ مَبْحَـثِ الإلَهِيَّاتِ فِي دَائِـرَةِ عِلْمِ الكَلَامِ عِنْـدَ مُحَمَّـدِ بَاقِرِ الدَّامَـادِ، بِعَدِّهِ مِـنْ آلْمَبَاحِثِ الْكَلَامِيَّةِ(جليل الكلام) الَّتِي تَنَاوَلَهَا الْفَيْلَسُـوْفُ فِي تَأْلِيْفَاتِـهِ الْقيِّمَةِ، وَبَحَثَهَا بمَنْهَجِيَّةٍ، وَدِرَاسَـةٍ تَحْلِيْلِيَّةٍ مُسْتَفِيْضَةٍ، تَكْشِفُ عَنْ مَقْدِرَتِهِ عَلَى فَهْمِ وَآسْتِيْعَابِ مَطَالِبِ الْأَبْحَاثِ الْإِلَهِيَّةِ لِيُكْمِلَ سِلْسِلَةَ آلْبَحْثِ آلْفَلْسَـفِيِّ بَعْـدَ الْكِنْدِي(١٨٥ – ٢٥٣ هـ = ٨٠١ – ٨٦٦ م) وَالْفَارَابِـي(ت ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م) وَابْـنِ سِـيْنَا(٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ – ١٠٣٧ م) وَآبْـنِ رُشْـدٍ(٥٢٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ - ١١٩٨ م)، مُـرُوْرُاً بِآلْمُحَقِّـقِ نَصِيْرِ آلدِّيْنِ آلطُّوْسِي (٥٩٧ - ٦٧٢هـ= ١٢٠٠- ١٢٧٤ م)، وَآلْعَلَّامَـةِ آلْحِلِّـي(٦٤٨ - ٧٢٦ هـ = ١٢٥٠ – ١٣٢٥ م).

إنَّ عَمَلِيَّـةَ سَـيْرِ آلبَحْـثِ تَمَثَّـلَتْ بِقِرَاءَتِي لِنُصُوْصِ الداماد، وَفَرْزِ آلشَّـوَاهِدَ آلكَلَامِيَّةَ فِي آلإلَهِيَّـاتِ، تَجَمَّعَتْ فِي نِهَايَةِ آلقِـرَاءَةِ مَجْمُوْعَةٌ مِنَ آلنُّصُـوْصِ تَمَّ تَصْنِيْفُهَا وَفْـقَ عَنَاوِيْنَ أَكْبَرَ كَشَـفَتْ مُحَاوَلَةَ آلْفَيْلَسُـوْفِ آلدَّامَـادِ فِي تَصَوُّرِ آلْوُجُـوْدِ، بَرُؤيَةٍ جَامِعَةٍ شَـامِلَةٍ، نَابِعَةٍ عِنْدَهُ مِنْ مَنْظُوْرَيْنِ هُمَا:(الكَلَامِي وَالعِرْفَانِي النَّظَرِ).

وَلَا رَيْـبَ أنَّ مَيْلَ هَـذَا آلمُفَكِّرِ نَحْـوَ هَذَيْنِ آلْـمَنْظُوْرَيْنِ مُرْتَبِـطٌ بِمُحَاوَلَاتِهِ آلْفِكْرِيَّةِ آلْعِلْمِيَّةِ الـمَوْضُوْعِيَّـةِ لِتَقْدِيْـمِ فَهْمٍ عَامٍّ شُـمُوْلِيٍّ مُوَحَّدٍ، وَمِنْ ثَـمَّ تَكْوِيْنِ رُؤْيَةٍ فَلْسَـفِيَّةٍ كَلَامِيَّةٍ عِرْفَانِيَّةٍ، عُرِفَتْ بِآسْـمِهِ وَهِيَ: آلْحِكْمَةُ الْيَمَانِيَّةُ)، فَالدَّامَادُ كَانَ مُوَفَّقاً فِي بِنَاءِ فَلْسَفَتِهِ الكَلَامِيَّةِ، وَفِي تَسَلْسُلِ مَوْضُوْعَـاتِ بَحْثِـهِ الفَلْسَـفِي وَالْكَلَامِـي، فَهُوَ يَتَنَاوَلُ فِي الصَّدَارَةِ الْمُشْكِلَةَ الإلَهِيَّةَ، فَيَتَعَرَّضُ، مِنْ خلَالِهَا، لَمَسَـائِلِ التَّوْحِيْـدِ وَالصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالفِعْلِيَّةِ، وَالعَدْلِ وَالنُّبُـوَّةِ وَالإمَامَةِ وَالمَعَادِ، ثُمَّ يَضَعُ الحلُوْلَ الفَلْسَفِيَّةَ وَالكَلَامِيَّةَ الَّتِي تَسْتَنِدُ إلَى التَّصَـوُّرَاتِ وَالتَّصْدِيقَاتِ وَالأقْيِسَـةِ البُرْهَانِيَّةِ اليَقِيْنِيَّةِ فِي دَعْمِ حُلُوْلِهِ تلْكَ.

وبَعْدَ ذَلِكَ يَنْتَقِلُ إلَى الثَّوَابِتِ الأسَاسِيَّةِ للدِّيْنِ مُلَقِّحَـاً إيَّاهَا بِالأدِلَّـةِ العَقْلِيَّةِ، لِيُحَـاوِلَ أنْ يُؤَكِّدَ عُمْقَ الصِّلَةِ بَيْنَ النَّقْلِ وَالعَقْلِ، لِيَنْتَقِلَ إلَى البَحْثِ الفَلْسَـفِي وَالكَلَامِي فِي مُشْـكِلَةِ العَالَمِ وَالطَّبِيْعَةِ وَالمَوْجُوْدَاتِ، وَالعَلَاقَةِ بَيْنَ وَاجِبِ الوُجُوْدِ لِذَاتِهِ وَالطَّبِيْعَةِ، وَتَحَقُّـقِ إرَادَتِهِ ـ تَعَالَى ـ فِي الوُجُوْدِ الطَّبِيْعِـي بِمَـا فِيْهِ مِـنْ حَرَكَةٍ وَتَغَيُّـرٍ وَجَوَاهِرَ وَأعْـرَاضٍ وَطَبَائِـعَ للمَوْجُـوْدَاتِ وَالأشْـيَاءِ الطَّبِيْعِيَّةِ.

لَقَـدِ آتَّخَـذْتُ مِـنْ عِلْمِ الـكَلَامِ(دراسَـةً فِي الإلَهِيَّاتِ) مَشْـرُوْعاً لبَحْثِي هَـذَا، لأتَبَيَّنَ حَقِيْقَةَ جُهْدِهِ فِي هَذَا المَيْدَانِ، مُعْتَمِداً فِي دِرَاسَتِي عَلَى نُصُوْصِهِ الَّتِـي تَبْحَثُ فِي هَـذَا الجَانِبِ، فَضْلاً عَنْ أَهَمِّ الدِّرَاسَـاتِ وَالبُحُوْثِ المُتَعَلِّقَةِ بِهِ، لِفَهْمِ وَتَحْلِيْـلِ مَا تَعَسَّـرَ عَلَـيَّ فَهْمَهُ مِـنْ نُصُوْصِهِ، فَآتَّخَـذْتُ مِـنَ المَنْظُـوْرِ التَّارِيْخِـي التَّكَامُلِـي الجَامِـعِ بَيْنَ العَقْلِ وَالنَّقْـلِ فِي إطَارِ مِنَ التَّحْلِيْلِ وَالتَّرْكِيْـبِ، مَنْهَجاً فِي دِرَاسَـتِي هَـذِهِ، بَعْدَ أن تَيَسَّـرَ لِيَ الحُصُولُ عَلَـى نُصُوْصِـهِ الكَلَامِيَّةِ القَيِّمَةِ مِنْ مَظَانِّ كُتُبِهِ، فَجَعَلْتُهَا سَبِيْلاً لِلْوُصُـوْلِ إلَى مَعْرِفَةِ آرَائِهِ، وَآسْتِخْلَاصِ أَهَمِّ النَّتَائِجِ مِنْهَا، وَتَقْدِيْمِهَا لِلْقَارِئِ الفَاضِلِ.

أَمَّا آلـهَدَفُ مِنَ آلبَحْثِ، فَقَدْ جَاءَ لِيُبَيِّنَ مُحَاوَلَةَ آكْتِشَافِ آلـمَعَالِمِ آلكَلَامِيَّةِ آلإلَهِيَّةِ لِمَنْهَجِ الدَّامَادِ، وَمُعَالَـجَتَهَا وَفْقَ حِكْمَتِهِ آلْيَمَانِيَّةِ، فَقَسَّمْتُ الْبَحْثَ

إِلَى مُقَدِّمَةٍ وَأَرْبَعَةِ فُصُولٍ وَخَاتِمَةٍ:

تَنَاوَلْتُ فِي المُقَدِّمَةِ خَارِطَةً مُصَغَّرَةً للبحث.

أَمَّا الَفصْـلُ الأَوَّلُ فَبَحَثَ عَنْ حَيَـاةِ الدَّامَادِ وَمَسَارِهِ الفَلْسَفِي،

وَأَمَّـا الْفَصْلُ الثَّانِي فَدَرَسْـتُ فِيْـهِ أُصُولَ الدِّينِ عِنْدَ الدَّامَادِ،

وَالْفَصْلُ الثَّالِثُ بَحَثْتُ فِيْهِ الإِلَهِيَّاتِ بَيْنَ عِلْمِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ عِنْدَ الدَّامَادِ

وَأَمَّا الْفَصْـلُ الرَّابِعُ وَالْأَخِيْرُ فَدَرَسْـتُ فِيْهِ جَـدَلَ الْوَحْـدَةِ وَالْكَثْـرَةِ(مَبَاحِـثَ الْوُجُودِ) فِي الْمَنْظُورِ الْعِرْفَانِي

وَأَمَّـا الخَاتِمَةُ، فآسْـتَعرَضْتُ فِيهَا خُلَاصَةً مُرَكَّزَةً لِأَهَمِّ النَّتَائِجِ الكَلَامِيَّةِ الَّتِي تَوَصَّلْتُ إِلَيْهَا فِي البَحْثِ.

اَلْفَصْلُ اَلْأَوَّلُ:حَيَاتُهُ وَفِكْرُهُ:

أولًا: حَيَاتُهُ وَسِيْرَتُهُ اَلْعِلْمِيَّةُ:

١ / اسمه ونسبه:

هو السـيّد محمّـد باقر(برهـان الدين) بن شـمس الدين محمّد بن محمود بـن عبد الكريم الحسـيني الأسـترآبادي الأصـل، أصفهانـي المنشـأ والموطـن، المعروف بـ(الميـر داماد) والملقّـب بـ(المعلّـم الثالث)، وهـذا اللقب يدلّ على شـهرة عظيمة له في الفلسـفة الإسلامية، شـهرةً لا معارض لها. وهـذا اللقب يحكي عن علوّ مرتبته في الفلسـفة الإسـلامية في عصره وبعـده، وهو مـن أعلام القرن(الحادي عشـر الهجري = السـابع عشـر الميلادي)، وهو أحد كبار علماء الشـيعة الإمامية في الحكمة الإلهية والفلسفة والكلام، ومن كبار المؤلّفين، فقد خلّف من الآثار في شتّى المعارف والعلوم من الفلسفة والفقـه والأُصـول والحديث والتفسـير والفلك والنجوم وغيرها[١].

٢ / ولادته:

ولـد الداماد في مدينة(اسـترآباد) الإيرانية عام(٩٧٠ ه = ١٥٦٢ م)، وعاش مدة مديدة من صباه وشبابه في مدينة(مشهد) المقدسة، وفيها بدأ حياته العلمية الأولى من دراسـاته لمقدمات العلـوم الدينيـة، وبعـد اجتيـازه تلـك المرحلة الدراسـية وإنهائه دروسـه التمهيدية كالصرف والنحـو والبلاغة والأدب، وما إليها من دروس أخـرى، اتجه نحـو العلوم الأساسـية في الدين الإسـلامي، فنهـل من معيـن العلـوم القرآنية، وارتشـف من أحاديث السـنة النبوية الشريفة، وخـاض غمـار بحار علـوم الفقـه، وأصوله، والحكمة، وتبحر في علـوم الرياضيات والفلك والنجـوم وغيـر ذلـك مـن العلـوم والمعارف المتداولة في عصره، كما اتجه في الوقت نفسه إلى التدوين والتأليف، فبادر الى تحرير مؤلفاته ومصنفاته[٢].

٣ / وفاته:

عندمـا سـافر من أصفهـان ـ عاصمة الدولة الصفوية[*] آنذاك ـ بصحبة الشـاه صفيّ الدين الصفوي[**] خليفة شـاه عباس الصفوي(٩٩٦ ـ ١٠٣٨ هـ = ١٥٨٧ـ ١٦٢٨ م) الذي جعـل كلًّا مـن الدامـاد وبهـاء الديـن العاملي مستشـاريه ـ إلى زيـارة العتبات المقدّسـة في العـراق أواخر عمره فاجأتـه المنيّة قرب قرية ذي الكفـل بين الحلّة والنجف في سـنة(١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م)، ودفـن في خـان النصف بين

كربلاء المقدسة والنجف الأشرف.

٤ / منزلته في الفكر الإسلامي:

ممـا لا ريب فيـه أنّ المير دامـاد من أجلّ علماء الشـيعة الإماميـة ومؤلّفيهـم، ومن أئمّة الحكمة والفلسـفة والـكلام والفقه واصوله على رأس القرن الحادي عشر.

واتّفق مترجموه في الإقرار بفضله وجلالته وجامعيّتـه في العلـوم الإسـلامية وغيرها من الرياضيات والطبيعيات والأدب ؛ حتى اشـتهر بالمعلّم الثالث.

هو الذي أسـس حـوزة أصفهـان وجعلها مركزاً للعلوم العقليّة والنقلية الإسـلامية، وبيده أشـرق للفلسفة رونقٌ وبهاءٌ، وعلى يديه تخرج الكثير من الفلاسـفة والمفكرين المسلمين ومن بينهم الفيلسـوف الإسلامي المعروف محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي.

لقد درس مدّة طويلة في المشـهد الرضوي وكان مشـتغلاً بالتحقيق في آثار الفلاسفة سيّما ابن سـينا ثمّ سـافر إلى قزوين وأقـام مدّة بها، بعدها سـافر إلى كاشان، وبالنهاية إلى أصفهان واهتـمّ بإحيـاء الفلسـفة الإسـلاميّة والتدريس والتأليف في مختلف العلوم[٣].

إن الدامـاد كان أحـد الفلاسـفة المسـلمين الذين كانت له مدرسـة فلسـفية متكاملة، مبتنية على أسـس وقواعد وثوابت إسلامية، وفلسفية ـ كلامية، وإشـراقية، فهـو بذلك قد نحى منحى الفيلسـوف الإسـلامي ابن سـينا، فالداماد كان رائدا في المدرسـة الفلسـفية الكبـرى التي بدأ بهـا أبو علي سـينا وواصـل الداماد مسـيرتها فيهـا، وبلـغ بها ملا صـدرا الـذروة والكمال، فـكل واحد من هـؤلاء قد وقف علـى منعطف من مسـيرة الفكر الفلسـفي الإسـلامي، وعرج به، وارتقى معه وسـما، ففي المدرسة الفلسفية لابن سـينا كانـت العناصر الرئيسـة لها هي:(الحكمة المشـائية: الحكمة الأرسـطية ـ الآراء الأفلاطونيـة والأفلوطينيـة المحدثـة والمبادئ والتعاليم الدينية الإسـلامية)، كما أرسى الداماد مدرسته الفلسفية المؤسسة على القواعد التالية:(الحكمـة المشـائية، والمبادئ والتعاليـم الدينية الإسلامية، والحكمة الإشراقية)، وبدورها بنيت المدرسة الفلسفية الصدرائية(الحكمة المتعالية) علـى أركان ثلاثـة هـي:(الحكمة المشـائية ـ البرهان والمبادئ والتعاليم الدينية الإسـلامية، والحكمة الإشراق ـ العرفان)[٤].

ثانيًا / أساتذته وتلاميذه[٥]:

أ: أسـاتذته: تَتَلْمَذَ فيلسـوفنا علـى عدّة من العلماء الكبار الذين كانت لهم مكانة متميزة في تاريخ الفكر الإسلامي، ومنهم:

١. خاله المحقّق الكركي الشـيخ عبد العالي العاملـي الكركي(٩٢٦ ـ ٩٩٣ هـ = ١٥١٩ – ١٥٨٥ م) حيث أجازه بالرواية عنه.

٢. حسـين بـن عبـد الصمـد والد الشـيخ البهائـي(٩١٨ ـ ٩٨٤ هـ = ١٥١٢ ـ ١٥٧٦ م)، حيث أجازه بالرواية عنه.

٣. السـيد نـور الدين عليّ بن أبي الحسـن الموسوي العاملي(ت ١٠٦٨ هـ = ١٦٥٧ م).

٤. محمد بن الحسـين فخر الدين الحسـيني السـمّاكي الأسـترآبادي(ت ٩٨٤ ه = ١٥٧٦ م)، وهذا هو أُستاذه في المعقول.

٥. تاج الدين حسـين بن شمس الدين محمد

الصاعدي الطوسي(***).

ب: تلاميذه[٦]:

تَتَلْمَذَ على مير داماد عدّة من العلماء، منهم:

١. الحكيم الإلهي والفيلسوف الربّاني صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي المشتهر بالمُلّا صدرا(٩٧٩ – ١٠٥٠ هـ = ١٥٦٩ - ١٦٥٠ م). وكان المير داماد أُستاذه في العلوم العقليّة.

٢. السيّد أحمد بن السيد زين العابدين الحسيني العاملي(ت ١٠٦٠ هـ = ١٦٥٠ م)، ابن خال وصهر السيّد مير داماد، وله إجازتان من المير داماد.

٣. حسين بن الميرزا رفيع الدين محمّد بن محمود الأمير شجاع الدين محمود الحسيني الآملي المازندراني الأصفهاني(١٠٠١ - ١٠٦٤ هـ = ١٥٩٢ - ١٦٥٣ م)، الملقّب مرّة بسلطان العلماء وأُخرى بخليفة السلطان، من أعاظم الفضلاء. زوّجه الشاه عباس الماضي ابنته، وفوّض إليه الوزارة، ثمّ استوزره من بعده الشاه صفيّ أيضاً.

٤. شمس الدين محمّد الجيلاني المعروف بالملاّ شمسا(ت ١٠٩٨ هـ = ١٦٨٨ م).

٥. قطب الدين الإشكوري محمّد بن شيخ عليّ الشريف اللاهيجي توفي ما بين التاريخين (١٠٨٨ هـ = ١٦٧٧ م) و(١٠٩٥ هـ = ١٦٨٣ م) صاحب كتاب(محبوب القلوب في تاريخ الفلاسفة).

٦. ويروي عن السيّد الداماد إجازة السيّد حسين بن السيّد حيدر الحسيني الكركي العاملي (١٠٠٢ – ١٠٧٤ هـ أو ١٠٧٦ هـ = ١٥٩٣ – ١٦٦٣ م أو ١٦٦٥ م).

٧: محمد تقي بن أبي الحسن الحسيني الاسترآبادي(****).

ثالثًا / مَنْهَجُهُ فِي آلتَّأْلِيْفِ وَآثَارُهُ:

لقد صنف الفيلسوف الإسلامي محمد باقر الداماد الكثير من الكتب والرسائل القيمة في شتى صنوف العلوم والمعارف، وهي من الذخائر المهمة التي كانت وما تزال مرجعا لطلاب العلم والمعرفة، وأهل البحث والتحقيق، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنَّ مَوْسُوْعِيَّتَهُ فِي التَّأْلِيْفِ، وَتَحْقِيْقَهُ فِي النَّظَرِيَّاتِ وَالمَبَانِي الفَلْسَفِيَّةِ وَالكَلَامِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ العِرْفَانِيَّةِ، والعلوم النقلية، مَكَّنَهُ مِنْ تَصْنِيْفِ مُؤَلَّفَاتٍ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي شَتَّى أَنْوَاعِ الثَّقَافَةِ، وَأَلْوَانِ المَعْرِفَةِ، تَنُمُّ عَنْ عَقْلِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ مَوْضُوْعِيَّةٍ كَبِيْرَةٍ، يَجِدُ فِيْهَا البَاحِثُ فُنُوْنًا مُتَنَوِّعَةً، مِنْ فَلْسَفَةٍ، وَعِلْمِ كَلَامٍ، وَعِرْفَانٍ، وَأَخْلَاقٍ، وعلوم قران، وفقه، وَلُغَةٍ، وَأَدَبٍ، وَغَيْرِهَا ومن هذه المؤلفات[٧].

١ / التفسير وعلوم القرآن :

١: تأول المقطعات في أوائل السور القرآنية.
٢: الأمانة الإلهية في تفسير آية الأمانة.
٣: تفسير سورة الإخلاص.
٤: تفسير المنتهي في تفسير القرآن.
٥:السبع الشداد.
٦: شرح حديث تمثيل أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بسورة التوحيد.
٧: مقالة في قل هو الله أحد، وأنه ثلث القرآن.

٢ / الفلسفة وعلم الكلام:

١: الإعضالات العويصات في فنون الكلام

والصناعات.

٢: الأفـق المبيـن فـي الحكمـة الإلهيـة.
٣: الإيقاظات في خلـق الأعمال وأفعال العباد.
٤: الإيماضات والتشريفات في حدود العالم وقدمه.
٥: أنموذج العلوم، ذكر فيه عشرين إشكالا عويصا.
٦: تقدمة تقويم الإيمان، وله(شرح تقدمة تقويم الإيمان، في إثبات الإمامة).
٧: تقويم الإيمان، وورد بلفظ(تقويم الأعيان).
٨: التقديسـات فـي الحكمـة الإلهيـة.
٩: تشريق الحق.
١٠: التصحيحات والتقومات.
١١: الجمع والتوفيق بين رأي الحكيمين في حدوث العالم.
١٢: الجذوات.
١٣: الجنة الواقية
١٤: حاشية تقويم الإيمان، وورد(شرح تقويم الإيمان).
١٥: الحبل المتين في الحكمة.
١٦: خلسات الملكوت.
١٧: رسالة في حدوث العالم.
١٨: رسالة في العالم الواجب.
١٩: رسالة في النهي عن تسمية المهدي ـ عليه السلام.
٢٠: رسالة في خلق الأفعال.
٢١: رسالة في تحقيق مفهوم الوجود.
٢٢: الرد على شرعة التسمية، وهو للسيد رفيع الدين محمد الصدر الحسيني الموسوي المتوفى عام(١٠٣٤ هـ = ١٦٢٤م).
٢٣: الصحيفة الملكوتية.
٢٤: الصراط المستقيم في الحكمة.
٢٥: الصناعية.
٢٦: القبسات في الحكمة.
٢٧: مقالة في علم الإلهي.
٢٨: مشارع النحاة في الحكمة.
٢٩: مشرق الأنوار.
٣٠: مصقل الصفا في إبطال مذهب النصارى.
٣١: اللوامع الربانية في رد شبه النصرانية.
٣٢: نفي الجبر والتفويض وورد بلفظ(رسالة في نفي الجبر).
٣٣: نبراس الضياء في تحقيق معنى البداء.
٣٤: حاشية ألهيات الشفا.
٣٥: خلق الأعمال.
٣٦: جيب الزاوية.

٣ / الفقه وأصوله:

١: جواب السؤال عن تنازع الزوجين في قدر المهر وتصديق وكيل الزوجة للزوج.
٢: حاشـية مختلـف العلامـة الحلـي.
٣: رسالة في الرضاع، أو الرسالة الرضاعية.
٤: شـارع النجـاة فـي الفقـه.
٥: شـرح مختصـر الأصـول للعضـدي.
٦: ضوابـط الرضـاع وقـد رتبه علـى مقدمة وثلاثـة اسـتبانات وخاتمـة، وكل اسـتبانه ضوابـط ومسـائل وتتمـات، وقـد فـرغ منـه فـي شـعبان عـام(١٠٢٨ ه = ١٦١٨ م)، وقـد طبـع عـام (١٣١٥ ه = ١٨٩٧ م).
٧: عيـون المسـائل فـي الفقـه مـن الطهـارة والعبـادات والصـلاة.

٤ / الحديث والأدعية:

١: التصحيحات في الأخبار والأدعية.
٢: حواشٍ على كتاب الكافي.
٣: حواشٍ على كتاب من لا يحضره الفقيه.
٤: شرح كتاب الاستبصار وورد(حاشية كتاب الإستبصار) وكتاب الاستبصار لمؤلفه: محمد بن الحسن(أبي جعفر) الطوسي(٣٨٥

- ٤٦٠ هـ = ٩٩٥ – ١٠٦٧ م).
٥: شرح لواقح الصحيفة ولواحقها.
٦: شرح كلمة(شايعت) الواردة في زيارة عاشوراء وأنها بالياء لا بالباء كما هو المشهور.
٧: الصحيفة الكاملة، أو حواشٍ على الصحيفة الكاملة.
٨: مقالة في تضعيف حديث سهو النبي.
٩: الرواشح السماوية في شرح حديث الإمامية، وهو شرح كتاب الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني(ت ٣٢٩ هـ = ٩٤١ م)، خرج منه شرح خطبته.
٥ / الرجال:
١: إثبات سيادة النسب بالأم إلى هاشم.
٢: حواشٍ على كتاب رجال الكشي لمؤلفه: محمد بن الحسن(أبي جعفر) الطوسي.
٣: خلة الملوك.
٤: رجال السيد مير محمد باقر الداماد.
٦ / الأدب:

١: ديوان الشعر في اللغة العربية والفارسية.
٢: مثنوي مطلع الأنوار.
٣: الأربعة أيام.

الْفَصْلُ الثَّانِي:أُصُولُ الدِّينِ عِنْدَ الدَّامَادِ

أولًا: التَّوْحِيدُ:

يُعَدُّ موضوع أصول الدين من المباحث الكلامية المهمة في الإلهيات عند فيلسوفنا الداماد، إذْ أنَّ البحث في هذا الجانب آقتضى من الفيلسوف الإلمام بآراء الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه، التي تشير إلى مسائل أصول الدين، والمتمثلة بالأدلة العقلية التي يوردها فيلسوفنا في كتبه القيِّمة التي تتضمن وجهة نظره الكلامية، وكذلك وظف العرفان النظري للاستدلال على وجود واجب الوجود بذاته. وهذا المنهج التكاملي بين العقل والنقل والعرفان الذي اعتمده هو عينه منهجه العام في مدرسته الفلسفية الحكمة اليمانية، وسأعرج على أول أصل وهو التوحيد.

إنَّ الله ـ تعالى ـ عند الداماد هو العلة المطلقة التي لا علة لها، ولا توجد علة في الوجود تنافسه في القدرة والسلطان، بل هو علة العلل، إذ لو كان الأمر كذلك لآستمرت سلسلة العلل والمعلولات إلى غير نهاية، ولو تحقق الاستمرار لاستحال إمكان تصور طرفي السلسلة، فيقول في بيان هذا المعنى:

((القيوم الواجب بالذات لا يجوز أنْ يكونَ مكافئ الذات لقيوم واجب وجود آخر، لو فرض أنه يكون ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ حتى تكون هناك علاقة عقلية يلزم بحسبها أنْ يكون هذا متقررًا مع ذلك، وذاك مع هذا، وليس أحدهما علة للآخر، بل هما متكافيان في أمر لزوم التقرر والوجود. أليس إذا كان واجبًا بذاته وكان له وجوب أيضًا باعتباره مع الثاني، كان ذلك الوجوب إما بالثاني، والقيوم الواجب بالذات لا يمكن أن يعرضه الوجوب بالغير أو بالقياس إلى الثاني، والوجوب بالقياس إلى الغير ليس يكون للشيء إلا بالقياس إلى ما هو علة أو معلول له أو ما هو معه في معلولية علة واحدة قد جمعتهما بعلة واحدة))[٨].

إنَّ واجب الوجود بذاته ـ عز وجل ـ لا يمكن أنْ تنقسمَ ذاتُهُ بأية حال من الأحوال، لأنها بسيطة غير مركبة من أجزاء فهو ـ سبحانه ـ واحدٌ من حيث وجوب الوجود بالذات

لا بالعـرض، إذْ لو كان وجـود واجب الوجود ثانيًـا وبالعَـرَض للزم الدور والتسلسـل، وهذا محال عقلًا. إذًا هو علة العلل، والغاية القصوى لسلسـلة العلل والمعلـولات الممكنة، فإله العالم واحد لا شـريك له في الخلق والإيجاد والإبداع والديمومـة والعناية، الذي خلـق عالم الإمكان علـى أكمل وأجمل وأفضل نظام عرفته العقول الإنسانية، فهو علة الوجود:((إنَّ القيوم الواجب بالذات ليس يمكن أنْ تؤتلف ذاته من كثرة عينية أو ذهنية فعلية أو تحليلية))[٩].

ويسـوق الداماد دليلًا آخرَ في نفس المعنى يقـرر أنَّ الله ـ تعالى ـ لا يمكن أنْ تكون له علة أخرى، لأنه لـو كان الأمر كذلك لم تجب ذاته، بـل تكون ممكنة الوجود، وهذه العلة أيضًا على افتراض أنها معلول لعلة أخرى، وهكذا تستمر السلسـلة إلى مـا لا نهاية، وهذا محـال خارجًا وعقـلاً، وهـذا المعنـى أكـده بقوله:((القيـوم الواجـب الوجود بذاته، تعالى عـن أنْ يتصور أن لـه علـة، ولعلك تجد ذلك مـن الفطريات... إنْ كانـت له علة في تقرره ووجوده كان تقرره ووجوده بها، وكل ما تجوهره ووجوده بشـيء فإذا اعتبر بذاتـه دون غيره لم يجب له تجوهر ووجـود، وكل مـا إذا اعتبر بذاته لـم يجب له تجوهـر ووجـود، فليس قيوما واجـب الوجود بالذات، فإذن القيـوم الواجب الوجود بالذات لا علة له))[١٠].

ثانيًا: الْعَدْلُ:

يُعَـدُّ مبحـث العدل مِـنَ المسـائل الكلامية المهمـة عنـد الداماد، إذْ يتضمـن مطالب إلهية دقيقـة تتمثـل في كـون الخالق ـ تعالـى ـ قادراً على فعل العدل والجور، إلا أنه يستحسن الأول فيفعلـه، ويسـتقبح الثانـي فيُبعده مِـنْ حضرته المقدسة، ومِنْ ثَمَّ فلا يفعله البتة، فحينما يوصَفُ بأنه قادر على الجـور، فهذا لا يعني أنه يفعله، وإنما يوصَفُ بذلك حتى لا يُنسـب إليه العجز، فهو قادر على كل شيء، ولكنَّ هذا الشيء يفعله إنْ كان حسناً، ولا يفعله إنْ كان قبيحًا.

لقد بيـن الداماد أن الخالق القيوم ـ سـبحانه ـ هـو الذي أعطـى التقـرر(= الفعليـة) لعالم الإمـكان، وهـذا إنمـا يـدل على كمـال النظام الكوني، فالتقرر والفعلية كمال، والوجود بالقوة هـو النقص:((إنَّ للكل مبدأً قيومًا واجبًا بالذات، يفيـض عنه كل متقـرر معلول بمـا هو متقرر وموجود... وفي عدله وحكمته وجوده وعنايته، وقضـاؤه وقدره، وفي أنه مبدأٌ لقاطبة ما سـواه فاعلـي، ومبدأٌ لها كمالـي... وكيف يترتب عنه نظام الخير في سلسـلتي البدو والعود، أخذًا من الجواهـر الملكيـة العقلية، ثـم الجواهر الملكية النفسية، ثم الجواهر الفلكية السماوية، ثم مرتبة فمرتبة إلى أقصى الوجود، أعني الإنسان إذا ما صار إلى مرتبة العقل المستفاد..))[١١].

إن مـن مظاهر عـدل الله ـ تعالى ـ هو مبدأ الثواب والعقـاب، فالثواب للمحسـن، والعقاب للمسـيء، وهـذا هو عيـد العـدل، إذ إنَّ الظلم والقبح، عند الداماد، صفتان سلبيتان مذمومتان لا تتصف بهما الذات الإلهية المقدسة:((العقوبة الإلهية من باب الرحمة وللتمحيص في النشـأة الأخيـرة، لا للتشـفي وثلوج النفـس بالانتقام ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ فهو الذي تسعى رحمته أمـام غضبه، ويحيط بسـطه من وراء قبضه))[١٢].

ثالثًا: النُّبُوَّةُ:

إنَّ مسـألة النبوة عند الداماد، تُعَدُّ قاعدة في

تحقيق معنى الخلافة الإلهية في عالم الإمكان، فهي مصداق لحكمة الاستخلاف وحقيقة دور الإنسان في الحياة، إذْ أنَّ(الله) ـ سبحانه وتعالى الذي تكون ذاته المقدسة جامعة لكل الصفات الكمالية المشتملة على الأسماء الحسنى، والصفات العليا، اقتضت حكمته بسط الرحمة والشفقة في الوجود، ونشر القدرة والحكمة بإظهار الخلائق والممكنات، فضلاً عن ذلك، أبى(الله) ـ تعالى ـ أنْ يجعل الأمور الممكنة لا تجري إلا بأسبابها الطبيعية، بآستثناء الممكنات التي تحتاج إلى تأييد وتسديد من قبله ـ عز وجل ـ للخلفاء الإلهيين(الأنبياء والأئمة) ـ عليهم السلام وهذا التأييد والتسديد متحققان بالمعجزات والكرامات، ليصدقهم الناس في دعوتهم إلى(الله) ـ تعالى. وهذه هي الحكمة التي اقتضاها العلم الإلهي من تحقيقه لمعنى الخلافة الإلهية، وهذه الخلافة متحققة بالنبوة والإمامة، وما يهمنا في هذا المقام، النبوة، وذلك لما كلف الله ـ عز وجل ـ عباده بمعرفته وعبادته، باعتبار أن معرفة الله ـ تعالى ـ تعد غاية وجودهم وغرض خلقهم، كما في قوله ـ سبحانه ـ:((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ))[١٣]، أي ليعرفون، وإنَّ معرفتهم بالله ـ عز وجل ـ وباليوم الآخر لا تتحقق إلا بتوسط النبوة والرسالة، وذلك لأنَّ مدارك العباد ـ عامة ـ لا تستطيع أنْ تعرفَ تفاصيل الشرائع والأديان السماوية إلا من طريق النبي المرسل، فحاجتهم إلى الواسطة المقدسة بينهم وبين خالقهم إنما هي متعلقة بالفطرة، وهذه الواسطة تتمثل بالمعلم البشري الذي يكون مثلهم في الخلقة والبشرية، وهو النبي والرسول، ومن يستخلفه بعد وفاته وهو الإمام[١٤]، وفي ذلك يقول:

((ولما كلّف الله العباد بمعرفته وعبادته ؛ لأنّ المعرفة غاية وجودهم وغرض خلقهم، كما في قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } ، أي ليعرفونِ، ومعرفتهم بالله وباليوم الآخر لا تحصل إلاّ من طريق النبوّة والرسالة ؛ لأنّ عقُولهم غير كافية فيها، سيّما ما يتعلّق منها بأحوال المعاد وحشر الأجساد، فيحتاجون إلى معلّم بشري وهو النبيّ والرسول أو مَن يستخلفه، فالمعرفة موقوفة على بعثة الرسل ؛ لأنّ ما لا يتمّ الواجب المطلق إلاّ به فهو واجب))[١٥].

وقد شرح الداماد قول الإمام موسى الكاظم(١٢٨ ـ ١٨٣ هـ = ٧٤٥ ـ ٧٩٩ م) بن الإمام جعفر الصادق(٨٠ ـ ١٤٨ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م) ـ عليهما السلام ـ في النبوة والإمامة:((إنّ الله جلّ وعزّ خلق النبيّين على النبوّة ؛ فلا يكونون إلاّ أنبياء، وخلق الأوصياء على الوصيّة ؛ فلا يكونون إلاّ أوصياء))[١٦].

فقال في بيان قول الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ:((إنّ النبوّة وكذلك الوصاية موهبة فطريّة إلهيّة غير مكسوبة، بحسب كون النفس الإنسانيّة مفطورةً في جبلّة جوهرها الملكوتي على أفضل ضروب القوّة القدسيّة، والعصمة الإلهيّة باعتبار جهتيها: النظريّةِ والعمليّة، من حيث قوّتيها: العاقلةِ والعاملة في وُسْعان قبولها عن الجنبة العالية الربّانيّة، وسلطان فعلها في الجنبة السافلة الجسدانيّة))[١٧]، أي أن مرتبة النبوة والإمامة هبة من الله ـ تعالى ـ على من يشاء مِنْ عباده، وهذا تأييد وتسديد من قبله ـ سبحانه ـ للنبي والوصي.

وقد قدم تعريفًا وافيًا، وشرحًا كاملًا لمعنى النبوة،((فالرسالة والنبوّة قوّة كماليّة، في النفس الإنسانيّة، بحسب صفاء جوهرها وقداسة

ذاتها..... شـديدَ الاتّصال بروح القدس، المعبّر عنه في لسـان حكمة مـا فوق الطبيعـة بالعقل الفعّال، وواهبِ الصور بإذن ربّه.))[١٨]

رابعًا: الإمَامَةُ:

يُعَدُّ موضوع الإمامة من مُتَمِّمَاتِ المسـائل الكلاميـة التي أوْلاها الدامـاد عناية خاصة في نصوصه، فقد بين بالأدلـة العقلية حاجة الخلق للإمـام والحجـة(الولي) بعد النبـي، إذْ أنَّ هذه الحاجـة تُعَـدُّ ضـرورة عقلية وفطريـة تتعلق بحياة الناس ومصيرهم ومصلحتهم، إذْ لا يمكن تصـور مجتمع مـن المجتمعات فـي العالم من دون قائد أو رئيس يحكمهم، وإلا ستعمُّ الفوضى بغياب الدولة والقانون.

فيقـول فـي بيـان هـذا المعنى:((المحدَّث، وهـم الوارثـون معـادنَ العلـم، وولاةُ الأمر، وشـهداءُ الله، وحججُه علـى خلقه، وخلفاؤه في أرضه، وأبوابـه التي يؤتى منها من بعد النبيّ، فالوصـيّ خليفة النبـيّ، والقائـم بالأمر مقامه، كمـا النفس خليفة العقل، والقلـب خليفة النفس، والدمـاغ خليفة القلب، والنخـاع خليفة الدماغ، والرئيس والمَلِك سـلطانهما على الظاهر فقط، والعالم المعلّم سلطانه على الباطن فقط، والنبيّ سـلطانه على الظاهر والباطـن جميعاً، وكذلك وصيّـه الذي يقـوم مقامه، فكما القلب أشـرف الأعضاء ورئيسـها في البـدن وخليفته الدماغ، فكذلك النبـيّ ـ صلى الله عليه وآله ـ كالقلب في العالم وخليفته كالدماغ. وكما من الدماغ تفيض وتنبثّ الأرواح السـارية والقوى المدركة على المشاعر والأعضاء، وعلى جميع جوانب البدن وأطرافـه، فكذلك قوّة البيان والتعليم إنّما تفيض عنـه ـ صلـى الله عليـه وآله ـ بواسـطة خليفته ووصيّـه على جميع أهـل العالم، وهو صاحب التأويل، وخازن الوحي، وحافظ الدين، وحامل عـرش الحكمة، وعيبة علـم الحقيقة، ونور الله في ظلمات الأرض))[١٩].

خامسًا: الْمَعَادُ:

إنَّ هذه المسألة الكلامية بينت اعتقاد الداماد بالمعادين الروحاني والجسماني، فكانت صدىً لآراء الغزالـي(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ ـ ١١١١ م)، ونصير الدين الطوسـي، والعلامة الحلـي، أمـا ابن سـينا فهو لـم ينكـر بالمطلق القول بالمعاد الجسـماني، غاية ما في الأمر أنَّ المعاد الجسـماني، عنده، لا سبيل إلى إثباته إلا عن طريـق النقل، وهذا لا يعني أنَّ ابن سـينا، الفيلسـوف المسلم، يشكك في المعاد الجسماني، نقـلاً، بل كان يرى أنَّه لا يسـتطيع إقامة الدليل على حشر الأجساد[٢٠].

ويُعطـي الداماد بيانًا لما يعتقد بالحَشْـرَيْنِ: الجسـماني والروحاني، مفاده أنَّ الشـخص قي الدنيـا، ببدنه ونفسـه، يُعاد يوم القيامـة بعينه، هو هو، ماهية ووجودًا:((إنَّ الحشـر الجسماني في النشـأة الآخرة إنما يكون بأنْ يجمع مُبْدِعُهَا الأجـزاء المادية من أجسـادها الباقية بحسـب المـادة، ويفيـض عليهـا صـورة علـى مماثلة صورتها التي كانت هي عليها في هذه النشـأة، فيرجع إليها بحسـب تلـك الصور تعلق النفوس الباقية الحية المجردة))[٢١].

فالمـوت عنده بداية الحياة الآخرة، ومرحلة أولـى لقوانين أخروية تختلـف عن قوانين عالم الدنيـا، فالنفس تكـون سـعيدة إذا كانت طاهرة بعيدة عن الذنوب والظلمات، ويكون في شـقاء إذا كانت بعيدة عن الصراط المسـتقيم، عاصية لأوامـر الله ـ عز وجـل ـ:((إنَّ الموت الطبيعي

يشبه أنْ يكون ولادة ثانية للحياة الحقة والسعادة الباقية في تلك النشأة الآخرة، إذا كانت النفس المجردة طاهرة الذات من كل شَوْبٍ وَدَنَسٍ، نقية الجوهر من كل سوء ودرن))[٢٢].

الْفَصْلُ الثَّالِثُ:

الإِلَهِيَّاتُ بَيْنَ عِلْمِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ عِنْدَ الدَّامَادِ:

إنَّ البحث في المسائل الميتافيزيقية هو دَيْدَنُ الفلاسفةِ الإلهيينَ، فالداماد سخر أدلته العقلية في رسم منظوره الكلامي في الإلهيات، فالبحث في الميتافيزيقا هو أشرف العلوم، عنده، ذلك لأنَّ موضوعه يُعَدُّ أشرف الموضوعات، وهو البحث في صفات الله ـ تعالى ـ الذاتية والفعلية، وأدلة وجوده، ومعرفته من قبل الإنسان، إلى غير ذلك من المسائل المتعلقة بهذا العلم الإلهي، فيقول في هذا المعنى:((العلم الأعلى أي العلم الإلهي وهو حكمة ما فوق الطبيعة، وعلم الأنوار العقلية والمفارقات القدسية أفضل علم بأفضل معلوم))[٢٣].

ويرى الباحث أنَّ المنظومة الكلامية الإلهية للداماد لا تقل أهمية عن نظريات فلاسفة اليونان، كأفلاطون وأرسطو، والفلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا، والإشراقيين كالسهروردي وابن عربي، فهي بلا ريب قد آعتمدت على كل هذه المدارس الفكرية، متبنية لآرائها، مفصلةً ومحللةً ومضيفةً.

فالمبحث الميتافيزيقي يُعَدُّ مِنَ الركائزِ الأساسيةِ التي تأسستْ عليها فلسفةُ الداماد الإلهيةُ، فسلسلةُ الموجوداتِ المُحْدَثَةِ إنما تصدرُ مِنَ الموجودِ الأولِ الذي لا علةَ لهُ في الإيجادِ، فعندهُ تقفُ السلسلةُ(العلل والمعلولات)، فهوَ علةُ العللِ لوجودِ سائرِ الموجوداتِ كلِّها، وهذا المعنى يَفترضُ أنَّ الموجودَ الأولَ يجبُ أنْ يكونَ كاملاً مطلقاً لا يعتريهِ أيُ نقصٍ، ويخلو مِنْ أنْ يكونَ في ذاتِهِ المقدسةِ لونٌ مِنَ الآفتقارِ والنقصِ والحاجةِ، فهوَ الكاملُ المطلقُ مِنْ جميعِ الوجوه، وهو الأزلي الذي لا بداية له، والأبدي الذي لا نهاية له.

أما سواهُ فلا يخلو مِنْ أنْ يكونَ فيهِ نقصٌ، فسوى واجبِ الوجودِ بذاتِهِ منَ العللِ والمعلولاتِ، إنما تحتاجُ في وجودِها إلى الموجودِ الأولِ الذي يقررُ العقلُ البشري بأنهُ واجبُ الوجودِ، قديمٌ أزليٌّ، باقٍ سرمديٌّ أبديٌّ، وما سواهُ ممكنُ الوجودِ، مُحْدَثٌ باقٍ بواجب الوجود بذاته.

أولًا: أَدِلَّةُ وُجُودِ اللهِ ـ تَعَالَى.

حتى لا يُطِيلُ بنا المقام في سرد أدلة وجود الله ـ تعالى ـ عند الداماد أكتفي بدليلين.

إنَّ العقل يقرر أن الشيء المخلوق المصنوع لا يمكن أن يوجد نفسه بنفسه، بل لابد من وجود موجد له أوجده من العدم إلى الوجود، وهذا المعنى ذكره الداماد بقوله:((العالم ما يعلم به الصانع، وما من ذرة من ذرات عوالم التقرر إلا وله بلسان ماهيته الجوازية وهويته المصنوعية يشهد بالصانع القيوم الواجب بالذات ـ جل ذكره))[٢٤]، فالتأمل في دقة النظام الكوني، وترتيبه على أكمل وأفضل وجه، لا يمكن أنْ يتحقق وجودهما ما لم يكن هنالك خالق وصانع خبير حكيم أوجدهما، وهو استدلال بالمعلول على العلة(البرهان الإنّي)، والذي يُعَدُّ من البراهين العقلية في معرفة(الله ـ سبحانه ـ

لقد بين الداماد أنَّ(الله) ـ تعالى ـ قديم غير

مُحْدَثٍ، إذْ لو كان محدثاً لاحتاج في وجوده إلى محدِثٍ غيره، وهذا محال عقلاً، لعدم استمرار التسلسل في العلل والمعلولات، واستحالة استمرار التسلسل يكشف لنا عَنْ أنَّ صدور الموجودات المحدثة إنما يتحقق بموجد واجب الوجود بذاته. وكذلك للزم الدور في ذلك، لأنَّ أحدهما يكون متوقفاً في وجوده على الآخر، وهذا محال عقلاً أيضاً، إذًا لابد من وجود علة لا علة لها، وهي الله ـ سبحانه ـ:

((إذا فرضنا سلسلة تسلسلية من معلول بعينه وعلل متسلسلة إلى لا نهاية، فان أي واحد من آحاد تلك السلسلة فرض جاعلًا موجبًا لذلك المجعول، كانت علته التي هي فوقه أحق لا محالة بأنْ توجبه وتجعله ولا من أهل الصلوح للجاعلية إذْ عدمه غير ممتنع بنفسه بل إنما بالذي هو فوقه وهو من أنحاء عدم المعلول بتة وهذا الحكم يستوعب بالاستغراق الشمولي لآحاد السلسلة على الإطلاق فمهما انتظمت السلسلة في اللحاظ الإجمالي انصرح أنه ليس للمعلول علة موجبة في تلك السلسلة أصلًا. فإذن يستبين بالفحص استيجاب وجود موجود ممتنع العدم في حد نفسه وفي مرتبة ذاته بنفس ذاته، خارج عن السلسلة وهو المبدأ للسلسلة والجاعل الموجب لها على الإطلاق وهي بالأسر مستندة إليه رأسًا))[٢٥].

ثانيًا: مَعْرِفَةُ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ

إنَّ معرفة ذات(الله) ـ تعالى أمر متعذر على العقل البشري، فمعرفة الذات لا تعني الإحاطة بالذات وإدراكها، وإنما المقصود معرفة صفاتها في أنها بسيطة وليست مركبة، ولا علة لها في إيجادها، ولا مكافئ لها في الوجود على الإطلاق، فقال في ذلك:

((إنَّ العقل..... لا يطيق أنْ يتعقل القيوم الواجب بالذات ـ جل جنابه..... فلغاية عزه وجلاله بسبب محوضة قدوسية وعلو مجده في الكمال وسلطان كبريائه في القاهرية وتساطع أشعة ظهوره في الباهرة، وتراكم لا تناهي نوره في الشدة وفرط نقص العقل بالنسبة إلى قوة كماله مع كونه كاملًا في نفسه، وبالإضافة إلى ما دونه، فإنه من هذه الجهة أضعف من أنْ يقوى على اكتناهه... فإذًا القيوم الواجب بالذات لا يمكن أنْ يتعقل، لأنه لسعة ذاته وتمامية وجوده وعدم تناهي مجده محيط بكل شيء، ويمتنع أنْ يحيط به شيء))[٢٦].

فالذات الإلهية المقدسة، عنده، لا تحصل فيه الكثرة بأية حال من الأحوال، فهي أحدية الذات، أي أنها غير مركبة من الأجزاء، إذ لو كانت كذلك لاحتاجت إلى غيرها في التأليف، وهذا محال عقلًا ـ كما قررته سابقًا وهذا المعنى موجود في نص الداماد:((إنَّ القيوم الواجب بالذات احدي الذات، بسيط الحقيقة من كل وجه، لا يصح تحليل ذاته الحقة إلى شيء وشيء، وحيثية وحيثية بوجه من الوجوه..... إنَّ القيوم الواجب بالذات واجب من جميع جهاته، إذْ كل جهة من جهاته فهي راجعة إلى جهة وجوب التقرر والوجود بالذات))[٢٧].

ثالثًا: صِفَاتُ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ

إنَّ موضوع صفات(الله) ـ تعالى ـ يُعَدُّ من أهم الدعائم الأساسية في المنظومة الكلامية الإلهية للداماد، ذلك لأن المباحث في جليل الكلام، عنده، قائمة على مسألة العلم الإلهي(علم الربوبيات)، من معرفة(الله) ـ عز وجل ـ وصفاته، التي درج أرباب الكلام على جعلها أساساً مهماً في فهم المعنى الحقيقي لصفاته ـ

سبحانه فصفات الذات عنده هي عين الذات، فلا تكون زائدة عليه، فوجودها ووجود الذات واحد، واجب الوجود بذاته، وفي ذلك يقول:((كل صفة كمالية فإنها نفس ذاته وعين حقيقته، فتكون لا محالة عين وجوب التقرر والوجود بالذات، فإذن ليس له جهة إمكانية بوجه من الوجوه أصلًا))[٢٨].

إنَّ من صفات الله ـ تعالى ـ أنَّ وجوده بالفعل ـ مطلقًا ـ لا بالقوة، ولكن هذا لا يعني أنَّ ذاته كانت موجودة بالقوة، بل أنَّه حينما يوصف بالكمال المطلق أزليًّا وأبديًّا، فهذا يعني أنَّ ذاته المطلقة كاملة، وإذا كانت كذلك فوجودها بالفعل لا بالقوة، فيقول في بيان هذا المعنى:

((إنَّ ذاته الحقة أعلى من أنْ لا تكون وراء معنى ما بالقوة..... هو بحسب الفعلي أرفع من أنْ يتصور له ملابسته معنى ما بالقوة))[٢٩].

والذات الإلهية المطلقة لا يمكن أن تحاط بالزمان والمكان، فهي خارجهما، ونجد أن الداماد يفرق بين الزمان والدهر والسرمد، فأوسع هذه المراتب الثلاث هو السرمد، الذي يسع الدهر ويحيط به، ثم الدهر يسع الزمان ويحيط به، فيقول في بيان هذا المعنى:((كما يتعالى القيوم الواجب بالذات ـ عز علاه ـ عن الزمان والزمانيات، فكذلك يتعالى عن الدهر والدهريات، فهو المستوي على عرش السرمد فوق الزمان والدهر، والدهر في أفق الزمان ومحيط به، والسرمد في أفق وعاء الدهر ومحيط به، وأفق الزمان كمعلول لوعاء الدهر، ووعاء الدهر كمعلول لعرش السرمد)[٣٠].

وقد أشار الداماد إلى مسألة وحدة الوجود التي كان معتقدًا بها، فالنص اللاحق يكشف بوضوح عن نظرية وحدة الوجود التي قال بها متأثراً بالفلاسفة الصوفيين كابن عربي، والتي تقرر أنَّ الوجودات المتكثرة إنما هي مجالي ومظاهر تجلي الأسماء والصفات للذات الإلهية المقدسة، وإنْ كانت هذه الوجودات متمايزة ومستقلة، فهي تَعَيُّناتٌ للحق ـ تعالى ـ:

((إنه ـ عز مجده ـ كل الوجود وكله الوجود، وكل التأصل وكله التأصل))[٣١].

إنَّ صفات الذات عين الذات عند الداماد:((يمتنع أنْ تكون له ـ عز مجده ـ صفة حقيقية زائدة على نفس ذاته))[٣٢].

أما علمه ـ تعالى ـ فهو مطلق محيط بجميع الكليات والجزئيات، أي أن علمه ـ تعالى ـ لا يوجد فاصل بينه وبين المعلولات بمعنى ليس أنه لم يكن يعلم ثم علم، بل أنَّه يعلم بها قبل إيجادها فيقول في بيان هذا المعنى:((إنَّ علمه ـ تعالى..... بجميع المعلولات من الموجودات العينية والصور الإدراكية للأذهان هو عين تلك المعلولات في الأعيان وعين صور تلك المدركات في الأذهان))[٣٣].

إن القدرة والهيمنة والإحاطة هي عين الذات البسيطة المطلقة، فالقدرة من صفات الذات، وإذا كانت كذلك فهي لا تحتاج في وجودها إلى غيرها فيقول:((القيومية الواجبية بالذات تساوق البساطة الحقة الخالصة المطلقة، والقيوم الواجب بالذات أحدٌ بسيطٌ حقٌّ، تَمَجَّدَ عن أنْ يتعلق بسبب أصلًا.... ليس له سبب به، ولا سبب عنه، ولا سبب فيه، ولا سبب له، وهو مسبب الأسباب من غير سبب))[٣٤].

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

جَدَلُ الْوَحْـدَةِ وَالْكَثْرَةِ(مَبَاحِـثُ الْوُجُودِ) فِي الْمَنْظُورِ الْعِرْفَانِي:

أولًا: الْوُجُودُ مَوْضُوعًا لِلْعِلْمِ الْإِلَهِي

إنَّ الحـدوث الدهري عنـد الداماد لا يتعلق بالزمـان، بل أوجـده الله ـ تعالى ـ بقدرة وإرادة كُـنْ فيكون:((وأمـا الحـادث الدهـري فيفيض بتمامه عـن العلة مرة واحدة ولكن لا في زمان ولا في آنٍ ما من الآنات))[٣٥].

والدهر مرتبة وجودية تسـبق الزمان، والله ـ عـز وجل ـ أوجـد المعلولات مـن عدم، ولا علـى مثال وصورة، فأوجدهـا في هذه المرتبة الوجوديـة بقـدرة وإرادة كن فيكـون، من دون فاصـل، فيقول:((أبـدع المعلـولات وأوجدهـا فـي وعاء الدهـر مرة واحدة بالقيـاس إلى ذاته الحقيقية، وإنْ كانت تلك المرة الواحدة في وعاء الدهر بالقياس إلى ذاته مرات شتى بالقياس إلى ذوات المعلولات في أفق الزمان))[٣٦].

والملاحظ أنَّ العقل يحكم بأنَّ الجعل الإلهي، وهو صفة فعـل، متقدم على الحـدوث، بمعنى أن الجعـل مرتبة وجودية سـابقة علـى مرتبة الحـدوث فيقرر هـذا المعنـى بقوله:((الحدوث يتأخـر عن الجعـل والإيجاد تأخـرًا بالذات في لحاظ العقل))[٣٧].

ويبيـن أن الجعـل الإلهـي أعم مـن مرتبة الإحـداث الزماني، والإيجاد مـن العدم بمرتبة الإحـداث الدهري:((الجعـل وهـو الفعـل أعم من الإحـداث الزماني، والإبداع وهو يسـاوق الإحـداث الدهري، إذ كل مجعول ومفعول فهو حادث دهري))[٣٨].

إنَّ نظرية الصدور المشـهورة عند فلاسفة الإسـلام، لاسيما الفارابي وابن سـينا، كان لها حضور بين عند الطوسـي، فمقولة الواحد الذي لا يصـدر عنه إلا واحد قد قال بها نصير الدين في حـل هذه المشـكلة، فيقـول:((إنَّ الواحد لا يصدر عنه... إلا شيء واحد))[٣٩].

فالعلـة الأولى يصدر عنها الصادر الأول، ومـن الأخير تصـدر الكثرة، فالعلـة الأولى لا يصـدر عنها معلـولان، بل أن الكثـرة تصدر عـن الصـادر الأول، لأنها من عالـم الإمكان: ((ليس يصح لعلـة تامة واحدة، بما هي واحدة، معلـولان، إذْ ليس في طباع الكثـرة أنْ تصدر معًا عن علة تامة واحدة من جميع الحيثيات[٤٠].

ويبين بنص صريح أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحـد:((إنَّ الواحد بما هـو واحد لا يصدر عنـه، من تلك الحيثية الواحدة إلا واحد، إذْ ليس في طبـاع الكثرة، بما هي كثرة، أنْ تصدر عن علـة واحدة من حيثية واحـدة..... لو صدر عن الواحـد من حيث هو واحد(أ) و(ب) مثلا، و(أ) ليس(ب)، فقد صدر عنه من الجهة الواحدة(ب) ومـا ليـس(ب)، وذلـك يتضمـن اجتماع النقيضين))[٤١].

ويوضـح الدامـاد كيفيـة صـدور الكثـرة عـن الصـادر الأول، فيقـرر أنَّ طبيعة الأخير تؤهله لصدور الكثرة عنه، ففيه من الاسـتعداد والإمكانية ما يكون فيه ذلك، فيقول:

((إذا صدر الصادر الأول ويقال له العنصر الأول لعالم الأمر، عن البارئ الواحد الحق من كل جهة ـ عز سـلطانه ـ كان في الصادر الأول اجتمـاع حيثيـات متصافقة، الإمـكان بالذات، والوجـوب بالغيـر والماهيـة والإنِّيَّـة، وتعقل

جوهـر الذات وتعقل ذات المبدأ الفياض البارئ الحق ـ سـبحانه ـ فتحصل بحسب تلك الحيثيات اعتبـارات متكثرة لذات المبـدع الواحد الحق ـ جـل ذكره ـ فإذا جعلت هذه الاعتبارات حيثيات تقييدية كان الفاعل التـام واحدا بالذات، متكثرًا بالاعتبارات التقييدية المكثرة لذات الموضوع، فكان ـ عز سلطانه ـ الفاعل المبدع لماهية العقل الأول الممكـن بالـذات والجاعـل لإنِّيَّـةِ العقل الأول الواجب بالغير))[٤٢].

ثانيًا: الْمَاهِيَّةُ وَالْوُجُودُ

لقـد كان الدامـاد يعتقـد بأصالـة الماهيـة واعتبارية الوجود، وهذه مسألة كلامية عويصة أخذت مساحة واسـعة في المنظومات الكلامية لفلاسفة الإسـلام، ومنهم فيلسـوفنا، حيث قرر أن الماهيـة أصـل للمفهوم الكلـي المجرد، في حيـن أن الجزئي المحسـوس المرئي ما هو إلا مصداق لهذا المفهوم الأصل، فالوجود إنما هو أمـر لاحق غير مُقَوِّمٍ لحقيقـة الماهية، فانتزاع المفهـوم مـن المصـداق(الجزئي) أسـبق من وجـود الجزئي نفسـه، وهـذا السـبق ماهية لا وجودًا إذ يقول في تقرير هذا المعنى:((السـبق بالماهية من حيز الجعل البسيط والسبق بالطبع والسـبق بالعليـة مـن حيـز الجعـل المؤلـف، والمتصف بالسـبق بالماهية إنما هو جوهريات الماهيـة بالقياس إليها، ونفـس الماهية بالقياس إلـى وجودها وجاعل الماهية جعلا بسـيطا إلا أنَّ سـبق الماهية على وجودها ليس إلا السـبق بالماهية، إذْ يمتنع أنْ يكون بحسـب الوجود أو كيفيتـه حتى يكون بالطبع أو بالعلية، وجوهري الماهية انه له عليها سبقا بالماهية))[٤٣].

إننا نُدْرِكُ الأشـياء الخارجية، فنجدها، من حيـث المظهـر، مختلفـة بعضها عـن بعض، ولكنها في حقيقتها متحدة في الواقعية والعينية، أي أنَّ الشـيْءَ واحدٌ، فـي الخارج، ولكن العقل يحللـه إلـى حيثية مختصـة مشـتركة، فنقول: الإنسـان موجود، والشـجر موجود، والشمس موجـودة... وهكذا، فهـذه القضايا تتضمن كلها حيثيـة مشـتركة بينها وهي(الوجـود)، ومثال ذلـك: حين يتصـور الذهن النـار، ينعكس هذا التصـور فيه على شـكل قضية بسـيطة مفادها أنَّ:(النـار موجودة)، ومن المعلوم أنَّ النار لها آثار في الخارج كالحرارة والإحراق والإضاءة، وهذه الآثار إما أنْ تكون مترتبة، أولا وبالذات، علـى الوجـود أو علـى الماهية، فعلـى القول بأنَّ منشـأ الأثر الخارجي إنمـا هو نفس وجود النـار، فالوجود هو الأصيـل، وعلى القول بأنَّ منشـأ الآثار إنما هي ماهية النار، فالماهية هي الأصيلـة حينئـذ[٤٤]، وإلى القـول الثاني ذهب الدامـاد، فقال فـي بيان ذلك:((ولـوازم الماهية بالاصطلاح الشايع متقدمة على اللواحق بحسب الوجود، كالأعراض العينية أو اللوازم الذهنية، والإضافات والسلوب المنتزعة بحسب الوجود في الأعيان، أو في الذهن، وسبق لواحق الذات بحسب تقرر سنخ الماهية على اللواحق بحسب الوجود مـن توابع السـبق بالماهيـة. وللماهية علـى اللاحـق بحسـب الوجود، كالجسـم على البيـاض، نحـوان من السـبق، سـبق بالماهية بنفس التجوهر، وسـبق بالطبـع بالوجود. أليس المعـروض للبياض هو الجسـم الموجود على أنَّ الوجـود له مدخل فـي المعروضية بخلاف معروض الوجود، فإنه نفس الماهية المرسلة لا الماهية الموجودة، ولذلك كان سبق الماهية على الوجود سبقًا بالماهية فقط))[٤٥] أي أن العقل هو الذي يحكم بأسبقية الماهية على الوجود.

ثالثًا: الْوَاجِبُ وَالْمُمْكِنُ وَالْمُمْتَنِعُ

إنَّ مسألة تقسيم الموجود، عند الداماد، إلى واجب وممكن وممتنع بالاعتبار العقلي تُعَدُّ من أهم المباحث الكلامية الإلهية التي أوْلاها اهتمامه في منظومته الفلسفية والكلامية، فيقرر أنَّ العقل يحكم أنه يجب أنْ يكون هنالك موجود، إما واجبٌ أو ممكنٌ أو ممتنعٌ، وإلا لتسلسلت العلل إلى غير نهاية، وهذا محال، فإنْ كان هذا الموجود واجباً فقط، فهو المطلوب في المسألة، وإنْ كان ممكناً فقط، فلابد له من علة أخرى تكون سبباً في إيجاده، لأنَّ المتأمل في خواص الممكن، من تغيُّر وتحرُّك وآستحالة وغير ذلك، لابد وأنْ يحكم على أنَّ هذا الممكن لا يمكن أنْ يُوْجِدَ نفسه بنفسه، إذاً يجب أنْ يكون هنالك موجود واجب الوجود لذاته قد أوجد هذا الممكن، وهو المطلوب، أما الممتنع فعلى قسمين: الممتنع لذاته، والممتنع بغيره، والذي يقصده الداماد في تقسيمه هنا إنما هو الممتنع بغيره، ذلك لأن الممتنع لذاته لا يعد موجودًا وشيئًا من الأشياء، أي أنَّ قدرة الله ـ تعالى ـ المطلقة لا تتعلق بالممتنع لذاته لأنه عدم إذْ لا يُعَدُّ شيئاً أو ممكناً، فالممتنع لذاته يفترضه العقل فقط، وينسجه بالوهم، من غير أنْ يكون له وجود في الواقع الخارجي، كآفتراض العقل لشريك(الله) ـ عز وجل فيقول:(الوجوب والإمكان والامتناع من الاعتبارات العقلية والانفصال المعتبر بينها إنما هو بحسب الذهن فلكل شيء من الأشياء فهو في لحاظ العقل إما متصف بالوجوب أو الإمكان أو الامتناع).[٤٦].

إنَّ الإمكان ذو مرتبة أدنى من الوجوب، لأنه وجود بالقوة، ويفتقر إلى الكمال، فيقول:((إنَّ نسبة الوجوب إلى الإمكان نسبة تمام إلى نقص، وإنَّ ما يجب وجوده لا بذاته هو الذي لوضع شيء ما ليس هو صار واجب الحصول، مثلًا: إن الأربعة واجبة الحصول لا بذاتها، ولكن عند فرض الاثنين واثنين، والاحتراق واجب الحصول لا بذاته، ولكن عند فرض البقاء في القوة الفاعلة بالطبع والقوة المنفعلة بالطبع، أعني المحرقة والمحترقة، ولا يكون ذلك إلا بإيجاب العلة الموجبة بالضرورة))[٤٧].

رابعًا: الْوُجُودُ بِالْقُوَّةِ وَالْوُجُودُ بِالْفِعْلِ

لقد بين فيلسوفنا المراد من القوة، فهي عبارة عن مفهوم يحمل أكثر من معنى بالاشتراك اللفظي:

المعنى الأول: يطلق على الاستعداد والإمكان، لا بمعنى الإمكان الذاتي أي الاستعداد على الخروج من القوة إلى الفعل، والقدرة والقابلية على الانفعال والتجدد والانتقال من حال إلى آخر، إلا أنها لا تكون فاعلة بالفعل، بل لها القدرة على الفعل في حالة الاستعداد والإمكان.

المعنى الثاني: ويطلق على الإمكان الذاتي للخروج من ما بالقوة إلى ما بالفعل، إذاً يتحقق وجود العلل الأربعة(الفاعلية والمادية والصورية والغائية)، وبهذا يكون الجسم فاعلاً بالفعل لا بالقوة، بخلاف المعنى الأول. والنصوص التالية تقرر هذين المعنيين.

((تتفاوت درجات اختلاف الماهيات تمامية ونقصانا بحسب سنخ الحقيقة الغير المشتركة إلى حيث تبلغ الخسة مركزها وتنال المنقصة حيزها، فلم يقنع نقصان سنخ الحقيقة باقتران حيثيتي القوة والفعلية حولها، بل يتجاوزه إلى شوب يضمن حيثية الفعلية بجهة القوة، فيكون الشيء من حيث له الفعلية مشوبا بأنْ تنشأها

القوة ويكتنفها الاستعداد))(٤٨).

والإمـكان الاسـتعدادي عنده إنمـا هو من خواص الوجود بالقـوة، ويصبح وجودًا بالفعل إذا اتحدت به الصورة التي تضفي كمالًا وفعلية له، فالوجود بالقوة هو الهيولى، والوجود بالفعل إنما هـو اتحـاد الهيولـى بالصورة:((الإمكان الاسـتعدادي الذي هو تهيؤ الهيولى واستعدادها لما يحصل لها مـن الصور والأعراض بتحقق بعض الأسباب والشرائط))(٤٩).

ويقـرر أن الخروج من القوة إلى الفعل إنما هو من لوازم الحركة، فيقول:

((إن الحركة كمـال وفعل، أي كون بالفعل إذا كان بإزائها قوة، إذْ الشيء قد يكون متحركًا بالقوة، وقد يكون متحركًا بالفعل، وفعله وكماله هـو الحركة..... فإنَّ الشـيء إذا اسْـوَدَّ وصار أسْوَدَ بالفعل لم يبقَ بالقوة أسْوَد))(٥٠).

خامسًا: الْعِلَّةُ وَالْمَعْلُولُ

إنَّ مفهومَي العلة والمعلول يُعَدَّانِ من أقسام الوجـود، عند الداماد، فوجود العلة يكون سـبباً لوجود شـيء آخر غيره في المرتبة الوجودية، من حيث القوة والضعف، والتقدم والتأخر.

ففي عالم الإمكان يكون وجود المعلول عدم عند عدم علته، أمـا العلة الأولى التامة المطلقة للوجـود(الله) ـ تعالى فهو موجود سـواء أوجد المعلولات أم لم يوجدها.

((وإنَّ لـكل معلـول بعينه علـة تامة واحدة بعينهـا، وكذلك لعلته التامـة المعيّنة أيضا علة تامة واحدة بعينها، وهكذا متصاعدة في السلسلة الطوليـة إلى الجاعل الواحد الأحد الحق من كل جهة جل سلطانه وعلا نوره وبرهانه))(٥١).

((التقـدم بالعلية هو تقدم العلـة الفاعلة من حيـث قد اسـتبدت هـي بالعليـة))(٥٢)، فوجود المعلول ينعدم عند انعدام وجود العلة.

سادسًا: الْجَوْهَرُ وَالْعَرَضُ

إن الممكـن هـو الذي ينقسـم إلـى الجوهر والعرض، والداماـد قد بَيَّنَ أن الوجود هو عدم كونـه جوهـراً وعرضـاً، لأنهما مـن خواص الماهية، وهما جنسان تندرج تحتهما أفرادهما، فالممكـن هو:((إمـا أنه في جوهـر ذاته ماهية منعوتة حقها ـ بحسـب نفس طبيعتها المرسلة ـ إنها في نفسـها بحيث مهما تقررت في الأعيان كانت قائمـة الذات والوجود لا في موضوع.... فـذاك هـو الجوهر، وهذا حـد الجنس الأقصى لمقولة الجوهر))(٥٣).

والعـرض هو صفـات شـارحة للجوهر، ومبينـة لحقيقتـه، فالعرض لا يتحقـق إلى في موضوع، وهذا ما بينه الداماد بقوله:((وإما أنه في حد جوهره طبيعة ناعتية تقررها ووجودها فـي نفسـها هـو بعينـه تقررهـا ووجودها في موضوع، أي ماهية حقها ـ بحسب نفس طبيعتها ـ إنها في حد نفسـها، بحيث مهما تقررت كانت البتة قائمة التقرر والوجود في موضوع بحسب شخصيتها، وبحسـب طبيعتها المرسلة جميعًا، فذاك هـو العرض، وهذا حـد الجنس الأقصى لمقولات الأعراض المشهورة))(٥٤).

وأمـا أقسـام الجوهـر مترتبة فـي التنازل أولها: الجوهر العقلي، وثانيها: الجوهر النفسي، وثالثهـا: الجوهر المـادي، فالجوهر العقلي هو أسـمى أنواعها، وأشـرفها وجودًا، والإنسـان يمتلك جميعها:((الجوهر العقلي المفارق مطلقًا، ويقع علـى الأنـوار العقلية المتخالفـة الأنواع

التـي هـي بالفعل فـي الفطرة الأولى بحسـب كمالاتها[٥٥].

الخاتمة

لقد غطت دراسة الآراء الكلامية في مبحث الإلهيات للداماد المحاور التالية:

الأول: إنَّ الناظـر إلـى المؤلفـات القيّمـة لمحمـد باقر الداماد يجد فيها الكثير من المفاهيم والمصطلحـات الفلسـفية والكلاميـة(جليـل الكلام، ودقيق الكلام)، ومـا يتعلق بالموضوع هـو المفاهيـم والمصطلحات الكلاميـة(جليل الكلام) وهي تتطلب فهماً خاصاً.

الثاني: إنَّ لعلم الكلام مفاهيمه ومصطلحاته الخاصـة بـه، والقائـم عليهـا، إذْ أنَّ مسـائله ومناهجـه(النقلـي، و العقلـي، والتكاملـي، والوجدانـي، والعرفانـي) تعتمـد كليـاً عليها. والمـراد مـن علم الـكلام في هـذا المقـام هو الإلهيـات فـي الأمـور العامة(أحـكام الوجود والماهيـة)، والأمـور الخاصـة(معرفـة الله ـ تعالى ـ وصفاته).

الثالث: الإلوهية والربوبية:

إنَّ مرتبـة الإلوهيـة، عنـد الداماد، تختص بصفـات(الله) ـ تعالـى ـ الذاتيـة، وتـدل على مرتبة الأحدية للذات الإلهية المقدسة، فلا يمكن الإحاطة بالذات المنزهة ـ على سـبيل الإطلاق ولا يشـار إليهـا، وليس لها اسـم أو علامة تدل عليهـا للإحاطة بها، وهي صفـة الأحدية جمع كل الحقائق الوجودية.

وأمـا مرتبـة الربوبيـة فمنهـا(الخالقيـة، والإبداعية، والإنشائية، والرازقية، وغيرها).

الرابع: أصول الديـن:(التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد):

الخامس: علم(الله) ـ تبـارك وتعالى ـ: إن علمه ـ عز وجل ـ محيط بجميع الأشـياء الكلية والجزئية، لأن كل شـيء من لوازم ذاته بوسط أو بغير وسـط، يتأدَّى إليه بعينه قضاؤه وقدره الـذي هو تفصيل قضائه، تأدِّياً واجباً، إذ كل ما لـم يجب وجـوده أولاً لم يوجد أخيـراً، فالعناية الإلهية هي عبارة عن إحاطة علمه البسيط الذي هو نفس وجود بالكل، وعلمه ـ تعالى ـ يجب أن يكون بسـيطاً، ذلك لأن علمـه عين ذاته، وذاته ـ سـبحانه ـ بسـيطة غير مركبة، فيلزم من ذلك أن يكـون علمه الذي هو عين ذاته بسـيطاً غير مركبٍ.

السـادس: إنَّ الناظر المحقق والمتأمل في مرحلة ما بعد الرشدية، يجد أنَّ فلاسفة ومفكري الإسلام في هذه المرحلة، لا يمكن التعبير عنهم بأنهم عاشـوا في عهود مظلمة، فوجود فلاسفة مسـلمين كبار أمثال(الفخـر الرازي ـ ٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م وابـن عربـي ـ ٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ = ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م ونصير الدين الطوسـي، والعلامة الحلـي، وبهاء الدين العاملي ـ ٩٥٣ ـ ١٠٣١ هـ = ١٥٤٧ ـ ١٦٢٢ م ومحمد باقر الداماد، وصدر الدين الشيرازي، ومحسـن الفيض الكاشاني ـ ١٠٠٧ ـ ١٠٩١ هـ = ١٦٠٠ ـ ١٦٨٠ م)، كان قـد أعطـى للفكـر الفلسفي الإسلامي ديمومته وحيويته.

السـابع: إنَّ الفلاسفة الذين سـبقوا الداماد، حاولـوا فـي معالجاتهـم الفلسـفية والكلامية، أنْ يُعيـدوا إلى الفكرين: الفلسـفي الإسـلامي، والكلامـي نشـاطهما وحيويتهمـا، إلا أنهم لم يُعْطُوا أطروحة جديدة ومتكاملة، كالتي أعطاها

الداماد في مدرسته(الحكمة اليمانية).

الثامن: ومن أهم خصائص مدرسة الحكمة اليمانية:

أ: إنَّ مقدرة الداماد الفكرية والفلسفية والكلامية والعلمية الموضوعية جعلته، فيما بعد، مستقلاً بالتفكير، ووقَّفَ نفسه على السلوك العرفاني، والتفكير البرهاني، والتحصيل العقيدي.

ب: إنَّ المتأمل في النظريات الفلسفية المتضمنة في مدرسة الحكمة اليمانية يجدها مركبة من فلسفات عدة(المشائية والإشراقية)، إلا أنها موحدة ومركبة ومبتكرة في طرحها وثوبها الجديدين فضلاً عن أهم النظريات الفلسفية والكلامية التي جاءت بها، كأصالة الماهية واعتبارية الوجود، والحدوث الدهري.

ج: لقد قام الداماد بابتكار طريقة ومنهج جديدين في منظومته الفلسفية الجامعة بين القرآن والبرهان والعرفان، هذه الطريقة أحدثت انقلاباً ومنعطفاً فكرياً لم يسبق له مثيل في تاريخ الفلسفة والكلام وغير ذلك من العلوم المتضمنة في مدرسته الفلسفية، فوحد بين الفلسفة والعقيدة من ناحية، وبين الفلسفة والعرفان من ناحية أخرى، فاستطاع أن يدمج عناصر الفلسفة المشائية والإشراقية، فضلاً عن ما جاءت به العقيدة الإسلامية من حقائق وأفكار متناغمة ومنسجمة تمام الانسجام مع الرؤية العقلية، فكون من هذا المزيج المركب فلسفة متعالية تسمو على الاستدلال العقلي البحت، والكشف والشهود الإشراقيين.

د: إنَّ فلسفة محمد باقر الداماد لم تكن فلسفة تقليدية مدرسية اقتباسية، بل من الموضوعية عدُّها نظاماً فلسفياً فكرياً مستقلاً، إذِ استطاع، بعلمية ومنهجية، هضم واستيعاب فلسفة كلٍّ من الفيلسوفين اليونانيين: أفلاطون(٤٢٧- ٣٤٧ ق.م)، وأرسطوطاليس(٣٨٤- ٣٢١ ق.م) فضلاً عن قراءته العلمية النقدية لما قدمه الفلاسفة المسلمون أمثال: أبي نصر الفارابي وابن سينا، وشهاب الدين السهروردي(٥٤٩- ٥٨٧ هـ = ١١٥٤ - ١١٩١ م)، والفخر الرازي، ومحيي الدين بن عربي، ونصير الدين الطوسي، والعلامة الحلي، من تفسير وتحليل وإبداع.

التاسع: ويمكن القول أنَّ مدرسة الحكمة اليمانية للداماد استطاعت أنْ تُكْمِلَ المنهجين الأساسين في الفلسفة الإسلامية عموماً، وهما:

١: البرهان، والمتمثل بالمشائية.

٢: الإشراق(= الكشف أو الشهود)، ومن أهم ممثليه: أفلوطين(٢٠٥- ٢٧٠م)، وشهاب الدين السهروردي، ومحيي الدين بن عربي.

٣: لقد استطاع الداماد أنْ يوظف قدرة العقل على الاستدلال، وجعله منهجًا في استنباط أدلته ونظرياته الفلسفية والكلامية، ولاسيما في مباحث الإلهيات.

٤: لقد تمكن فيلسوفنا، بذكائه وفطنته، أنْ يُفَصِّلَ في أحكام الماهية والوجود، وما يترتب على ذلك من مباحث مستفيضة. فالوجود عنده واجب وممكن وممتنع(بغيره)، والواجب هو واجب الوجود بذاته ـ تعالى أما الممكن فمقتصر على عالم الإمكان، والوجود بالفعل يكون أشرف وأكمل مرتبة من الوجود بالقوة، في حين أن الممتنع عنده هو الممتنع بغيره لا بذاته، ذلك لأن الممتنع بذاته لا يكون له نصيب من الوجود، أما الممتنع بغيره فوجوده متعلق بعلته، أي أنه مرتبة من مراتب الوجود بالقوة.

هذا ما خرجت به وأنا أتتبع خطوات هذا الفيلسوف في المباحث الكلامية ـ الإلهيات، وهو يوظف أدلته توظيفًا خلّاقًا، يحتفظ لنفسه فيها بحق الريادة والإبداع، أرجو أكون قد وفقت في بيان الإلهيات عند الداماد، ولا أدعي الكمال فهو لله ـ تعالى ـ وحده.

الهوامش:

(١) ينظر في ترجمته:

غلام حسين قيصريه ها ونعمت الله الجليلي في مقدمتهما لتحقيق كتاب الدامـاد(الرواشح السماوية)، دار الحديث، ط ١، قم المقدسة، إيران، ١٤٢٢ ه = ٢٠٠٢ م، ص ٧ وما بعدها.

وعبد الله أفندي الأصبهاني(١٠٦٦ – ١١٣٠ ه = ١٦٥٥ – ١٧١٧ م)، رياض العلماء وحياض الفضلاء، ج ٥، تحقيق: أحمد الحسيني، اهتمام: محمود المرعشي، طبع برعاية شهاب الدين المرعشي النجفي، مطبعة الخيام، قم المقدسة، إيران، ١٤٠١ ه = ١٩٨٠ م، ص ٤٠ وما بعدها.

ومحمد باقر بن زين العابدين بن جعفر الموسوي الخوانساري الاصبهاني(١٢٢٦ - ١٣١٣ هـ = ١٨١١ – ١٨٩٥ م)، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ج ٢، عنيت بنشره: مكتبة إسماعيليان،(د.ط)، طهران – قم المقدسة، إيران، ١٣٩٠ ه = ١٩٧٠ م، ص ٦٢ وما بعدها.

ومحمد علي الأنصاري(معاصر)، الموسوعة الفقهية الميسرة، ج ٣، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي، ط ١، قم المقدسة، إيران، ١٤٢٠ ه = ١٩٩٩ م، ص ٥١٨ – ٥١٩.

ومحمد هادي الأميني(معاصر)، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، مطبعة الآداب، ط ١، النجف الأشرف، العراق، ١٣٨٤ ه = ١٩٦٤ م، ص ١٧٨.

وعلي أصغر بن محمد شفيع الجابلقي البروجردي(ت ١٣١٣ ه)، طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال، ج ١، تقديم: شهاب الدين المرعشي النجفي(١٣١٥ – ١٤١١ هـ = ١٨٩٧ – ١٩٩٠ م)، تحقيق: مهدي الرجائي، منشورات مكتبة شهاب الدين المرعشي النجفي، ط ١، قم المقدسة، إيران، ١٤١٠ ه = ١٩٨٩ م - ١٩٩٠ م، ص ٨٠.

وأبو القاسم بن علي أكبر الموسوي الخوئي(١٣١٧- ١٤١٣ ه = ١٨٩٩- ١٩٩٢ م)، معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، ج ١٥، ط ٥،(لا يوجد مكان الطبع والنشر)، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢ م، ص ٢٢٣ – ٢٢٤.

وخير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي(١٣١٠ – ١٣٩٦ ه = ١٨٩٣ – ١٩٧٦ م)، قاموس الأعلام، ج ٦، دار العلم للملايين، ط ٥، بيروت، لبنان، ١٩٨٠ م، ص ٤٨.

ومحمد حسين الحسيني الجلالي(معاصر)، فهرس التراث، ج ١، تحقيق: محمد جواد الحسيني الجلالي، الناشر: دليل ما، قم المقدسة، إيران، ١٤٢٢ ه = ٢٠٠١ م، ص ٨٤٨ – ٨٥٠.

وعمر رضا كحالة(معاصر)، معجم المؤلفين، ج ١١، مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي،(د.ط)، بيروت، لبنان،(د.ت)، ص ١٩٦.

وعلي صدر الدين بن أحمد نظام الدين الحسيني الحسني المدني(ابن معصوم)(ت ق ١١ ه = ق ١٧ م)، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، منشورات: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران، إيران،(د.ت)، ص ٤٧٧ – ٤٧٩.

عباس بن محمد رضا القمي(١٢٩٤ – ١٣٥٩ هـ = ١٨٧٧ – ١٩٤٠ م)، الكنى والألقاب، ج ٢، تقديم: محمد هادي الأميني(معاصر)، مكتبة الصدر،(د.ط)، طهران، إيران،(د.ت)، ص ٢٢٦ – ٢٢٨.

اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق ـ عليه السلام(معاصر)، موسوعة طبقات الفقهاء، ج ١١، إشراف: جعفر السبحاني(معاصر)، مؤسسة الإمام الصادق ـ عليه السلام ط ١، قم المقدسة، إيران، ١٤١٨ ه = ١٩٩٧ م، ص ٣١٥ – ٣١٧.

وشبكة الهجر الثقافية(www.hajrcom.com)، موقع إلكتروني في شبكة الإنترنت، ٨ / ١١ /

٢٠١٤ م، ص ١.

ومنتـدى مركز الدراسـات التخصصيـة في الإمام المهدي ـ عجل الله فرجه(www.m-(mahdi. net موقع إلكتروني في شـبكة الإنترنت، ١٧ / ١١ / ٢٠١٤ م، ص ١ وما بعدها.

وويكيبيديا(الموسـوعة الحرة)،(ar.wikipedia. org)، موقع إلكتروني في شبكة الإنترنت، ١٧ / ١١ / ٢٠١٤ م، ص ١ وما بعدها.

(٢) ينظـر: علي أوجبي في مقدمتـه لتحقيق كتاب الداماد(تقويم الإيمان) مع شرح لكتاب بعنوان(كشـف الحقائق) لأحمـد العلـوي العاملي، مع تعليقـات علـي النـوري، منشـورات ميـراث مكتـوب، ط ٢، طهـران، إيـران، ١٤٢٧ ه = ٢٠٠٧ م، ص ١٥٧.

(*) نسـبة إلى الشـيخ صفي الديـن(٦٥٠- ٧٣٥ ه = ١٢٥١- ١٣٣٦ م)، الجـد الأكبر للصفويين، الذي كان مرشـداً ومتصوفـاً وزاهداً. ينظر: د. جعفر آل ياسـين، الفيلسوف الشيرازي ومكانته في تجديد الفكر الفلسفي في الإسلام، منشورات عويدات، ط ١، بيروت، لبنان، باريس، فرنسا، ١٩٧٨ م، ص١٣.

(**) لم أقف على سَنَتَي ولادته ووفاته.

(٣) ينظـر: غلام حسـين قيصريه هـا ونعمت الله الجليلـي فـي مقدمتهمـا لتحقيق كتـاب الداماد (الرواشـح السـماوية)، المرجع السـابق، ص ٩ – ١٠.

(٤) علي اوجبي في مقدمتـه لتحقيق كتاب الداماد(تقويم الايمان)، المرجع نفسه، ص١٦١.

ومـن الجديـر بالذكـر أن الدامـاد كانـت فلسـفته معروفـة بالحكمـة اليمانية، فقـد اقتبس هو هذا العنوان لمدرسـته الفلسـفية تَـيَـمُّـنـًا بالحديث الشـريف:((الإيمان يماني، والحكمة يمانية))، والمـوارد التـي ذكر فيهـا مصطلـح(الحكمة اليمانية) هي:

((وأما على سبيل الحكمة اليمانية ومحجة الصناعة البرهانية..)). محمد باقر الداماد، الأفق المبين، حققـه وقدم له: حامد ناجي اصفهاني، الناشـر: ميراث مكتوب، ط ١، طهران، ايران، ١٣٩١ ش = ١٤٣٤ ه = ٢٠١٢ م، ص ١٥٥. والمصدر نفسه، ص ١٦٨، وص ٣٤٣، وص ٥٣٦، وص ٦٨٨.

ومعنـى الحديـث أن الإيمان بدأ مـن مكة وهي من تهامة وتهامة من أرض اليمن ولهذا يقال للكعبة اليمانيـة. يراجـع هـذا المعنى: محمد محسـن الفيـض الكاشـاني، الوافـي، ج ٢٦، التحقيق: في مركز التحقيقـات الدينية والعلمية في مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام باهتمام وإشـراف: مؤسـس المكتبـة كمال الديـن فقيه إيماني، منشـورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين علـي ـ عليه السـلام ـ العامـة، ط ١، أصفهان، إيران، ١٤١٦ ه = ١٩٩٥ م، ص ١٤١، وص ٣٨٢.

ويراجع هذا الحديث الشـريف: محمد بن يعقوب بن إسـحق(أبـو جعفـر) الكليني الـرازي (ت ٣٢٩ ه = ٩٤١ م)، الروضـة مـن الكافي، مـع تعليقات نافعة مأخوذة من عدة شـروح، ج ٨، حققـه وصححـه وقابله وعلـق عليه: علي أكبر الغفاري، عنى بنشـره: محمد الآخوندي: مؤسـس دار الكتب الإسـلامية، ط ٤، طهران، إيران، ١٩٨٩ ه = ١٩٦٩ م، ص ٧٠.

والفضل بن الحسن بن الفضل(أمين الدين، أبو علي) الطبرسـي(ت ٥٤٨ ه = ١١٥٣ م)، مجمـع البيان في تفسير القرآن، حققه وعلق عليه: لجنة من العلمـاء والمحققين الاختصاصيين، قدم له: السيد محسن الأمين العاملي(١٢٨٢ – ١٣٧١ هـ = ١٨٦٥ – ١٩٥٢ م)، منشـورات مؤسسة الأعلمـي، ط ١، بيـروت، لبنـان، ١٤١٥ ه = ١٩٩٥ م، ص ٣٥٨.

وفتح الله بن شـكر الله الشـريف الكاشاني(ت ٩٨٨ هـ= ١٥٨٠ م)، زبدة البيان(أو زبدة التفاسير)، تحقيق ونشـر: مؤسسة المعارف الإسلامية، ط ١، قم المقدسـة، إيران، ١٤٢٣ ه = ٢٠٠٢ م، ص ٢٧٦.

ومحمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي الأصفهاني المجلسي(١٠٣٧ – ١١١١ هـ = ١٦٢٧ – ١٦٩٩ م)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ٢٢، مؤسسة الوفاء، ط ٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ ه = ١٩٨٣ م، ص ١٣٦.

ومحمد باقر المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج ٢٥، حققه وقدّم له: مرتضى العسكري، إخراج ومقابلة وتصحيح: هاشم الرّسولي، دار الكتب الإسلامية، ط ٢، طهران، إيران، ١٤٠٤ هـ = ١٣٦٣ ش = ١٩٨٣ م، ص ١٦٣.

وعلي بن حسين الحائري الطهراني(ت ١٣٥٣ ه = ١٩٣٤ م)، تفسير مقتنيات الدرر، الناشر: محمد الآخوندي مدير دار الكتب الإسلامية،(د.ط)، طهران، إيران، ١٣٣٧ ش = ١٩٥٨ م، ص ٣٧.

ومحمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، تحقيق مؤسسة دار الحديث الثقافية، دار الحديث، ط ١، قم المقدسة، إيران، ١٣٧٦ ش = ١٤١٩ هـ = ١٩٩٧ م، ص ١١٢.

ومؤسسة المعارف الإسلامية، معجم أحاديث الإمام المهدي ـ عليه السلام ج ١، إشراف: علي الكوراني العاملي، منشورات مؤسسة المعارف الإسلامية، ط ١، قم المقدسة، إيران، ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م، ص ٢٩٤.

(٥) غلام حسين قيصريه ها ونعمت الله الجليلي في مقدمتهما لتحقيق كتاب الداماد(الرواشح السماوية)، المرجع السابق، ص ١١.

(***) لم أقف على سَنَتَي ولادته ووفاته.

(٦) المرجع نفسه، ص ١١ – ١٢.

(****) لم أقف على سَنَتَي ولادته ووفاته.

(٧) يراجع في مؤلفاته: المرجع نفسه، ص ١٢ – ١٦.

ومحمد محسن آغا بزرك الطهراني(١٢٩٣-١٣٨٩ هـ = ١٨٧٦- ١٩٧٠م)، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ٣، دار الأضواء، ط ٣، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م، ص ٣٠٧. وج ٤، ص ٣٣٥، وص ٣٦٤، وص ٣٩٦. وج ٥، ص ٨٤، وص ٩٢. وج ٦، ص ٢١، وص ٥٧، وص ١٤٥. وج ٧، ص ٣٩، وص ٢٤٠ – ٢٤١، وص ٢٤٣. وج ٨، ص ٢٢٩. وج ١٠، ص ٩٨. وج ١١، ص ١٨٩. وج ١٣، ص ١٣٢. وج ١٥، ص ١٨٩. وج ١٦، ص ٢٦٧. وج ١٩، ص ٢٩٨. وج ٢١، ص ٤٠٢. وج ٢٤، ص ٣٨.

(٨) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٢٨٣ – ٢٨٤.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٨٤ – ٢٨٥. وللاستزادة عن موضوع التوحيد عنده يراجع:

محمد باقر الداماد، تقويم الإيمان، المصدر السابق، ص ٢٨٠ وما بعدها.

(١٠) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٢٨٣. وللاستزادة عن التوحيد للداماد يراجع: محمد باقر الداماد، إثنتا عشرة رسالة، ج ١، طبعة حجرية، نشر: جمال الدين المير دامادي،(برنامج مكتبة أهل البيت ـ عليهم السلام)، الإيميل الإلكتروني:info@ablibrary.net الموقع الإلكتروني: www.ablibrary.net))،(قرص CD)، الإصدار الثاني، إيران، تاريخ الإصدار: ١٤٣٣ هـ = ١٢ / ٣ / ٢٠١٢ م، ص ١٢ وما بعدها.

(١١) محمد باقر الداماد، تقويم الإيمان، المصدر السابق، ص ٢٠١.

(١٢) محمد باقر الداماد، القبسات، باهتمام: د. مهدي محقق(وآخرون)، مؤسسة انتشارات وطبع جامعة طهران،(د.ط)، طهران، إيران، ١٣٧٤ ش = ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م، ص ٤٦٠. وللاستزادة عن موضوع العدل يراجع: محمد باقر الداماد، اثنتا عشرة رسالة، ج ٤، المصدر السابق، ص ٤٢ وما بعدها.

(١٣) الذاريات: ٥٦.

(١٤) كمال الحيدري، معرفة الله ـ تعالى ج ١، بقلم: طلال الحسن، مؤسسة الإمام الجواد ـ عليه السلام دار فراقد،(د.ط)، قم المقدسة، إيران، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٧ م، ص ١٢.

(١٥) محمد باقر الداماد، الرواشح السماوية، المصدر السابق، ص ٤٥.

(١٦) يراجع قول الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ بألفاظ مختلفة في المصادر والمراجع التالية: محمد باقر الداماد، الرواشح السماوية، المصدر نفسه، ص ٦٠.

ومحمد بن يعقوب الكليني، الأصول من الكافي، ج ١، حققه وصححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، نهض بمشروعه: محمد الآخوندي، دار الكتب الإسلامية، ط ٥، طهران، إيران، ١٣٦٣ ش = ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م، ص ٨. وج ٢، ص ٤١٨.

ومحمد صالح بن أحمد بن شمس الدين السَّرَوي المازندراني(ت ١٠٨١ هـ أو ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٠م أو ١٦٧٥ م)، شرح أصول الكافي، ج ١، تعليق: أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، لبنان، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠ م، ص ٥٦.

ومحمد محسن الفيض الكاشاني، الوافي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٤١.

(١٧) محمد باقر الداماد، الرواشح السماوية، المصدر السابق، ص ٦٠.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٦٠. وللاستزادة عن معنى النبوة عنده يراجع كتابه(اثنتا عشرة رسالة)، ج ٣، المصدر السابق، ص ٧.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢٠) ينظر: ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، القسم الثالث، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، مصر، ١٩٨٥ م، ص ٢٢٤ وما بعدها. وابن سينا، المبدأ والمعاد، باهتمام: عبد الله نوراني، ط ١، طهران، إيران، ١٣٦٣ ش = ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م، ص ٩١ وما بعدها. ود. فتح الله خليف، ابن سينا ومذهبه في النفس: دراسة في القصيدة العينية، دار الأحد،(د.ط)، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م، ص ١١٨. ود. محمود ماضي، في فلسفة ابن سينا: تحليل ونقد، دار الدعوة، ط ١، الإسكندرية، مصر، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م، ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢١) محمد باقر الداماد، الافق المبين، ص ١٦٩.

(٢٢) محمد باقر الداماد، القبسات، ص ٤٨٠.

(٢٣) محمد باقر الداماد، تقويم الإيمان، ص ١٩٩.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٤٣٤. وهنالك نص آخر له يقرر هذا المعنى أيضًا:((اعلم أنَّ القيوم الواجب بالذات ـ جل كبرياؤه ـ لا يسوغ أنْ ينطبع في ذهن ما من الأذهان، ويتمثل في مدرك ما من المدارك)). محمد باقر الداماد، تقويم الإيمان، ص ٣١٦.

(٢٧) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٣٠٥.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٠٧.

(٣٠) محمد باقر الداماد، تقويم الإيمان، ص ٣٣٠.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٣١٨.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٣١٠.

(٣٣) محمد باقر الداماد، الصراط المستقيم في ربط الحادث بالقديم، حققه وقدم له: علي أوجبي، مركز نشر ميراث مكتوب، ط ١، طهران، إيران، ١٤٢٣ ه = ٢٠٠٢ م، ص ١٧٥.

(٣٤) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٢٨٧.

(٣٥) محمد باقر الداماد، الصراط المستقيم في ربط الحادث بالقديم، ص ٢٣٠ – ٢٣١.

(٣٦) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٣٠٧.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٨.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٧٤ – ٣٧٥.

(٣٩) محمد بن الحسن(نصير الدين) الطوسي، مُصارع المُصارع، تحقيق: حسن المُعزي، باهتمام: محمود المرعشي، منشورات مكتبة آية الله شهاب الدين المرعشي النجفي(١٣١٥ – ١٤١١ ه = ١٨٩٧ – ١٩٩٠ م)،(د.ط)، قم المقدسة، إيران، ١٤٠٥ ه = ١٩٨٥ م، ص ٨٥. إنَّ كتاب(مُصارع المُصارع) للفيلسوف الطوسي هو عبارة عن الإشكالات الفلسفية والكلامية التي وجهها للفيلسوف والمتكلم الأشعري: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(٤٧٩ – ٥٤٨ ه = ١٠٨٦ – ١١٥٣ م)، صاحب كتابي: الملل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، المشهورين في علم الكلام، فضلاً عن كتب أخرى. وكتاب الطوسي هذا إنما هو نقد فلسفي كلامي للشهرستاني الذي قام في كتابه(مُصارعة الفلاسفة) بتوجيه إشكالاته الفلسفية والكلامية إلى بعض المسائل الفلسفية والكلامية لابن سينا.

(٤٠) محمد باقر الداماد، القبسات، ص ٢٢٠.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٥١ – ٣٥٢. وللاستزادة عن الصدور يراجع المصدر نفسه، ص ٣٥٤ وما بعدها.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

(٤٣) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٦٨٥.

(٤٤) ينظر: كمال الحيدري، فلسفة صدر المتألهين، قراءة في مرتكزات الحكمة المتعالية(محاضرات السيد كمال الحيدري)، بقلم: خليل رزق، دار فراقد، ط ١، قم المقدسة، إيران، ١٤٣٠ ه = ٢٠٠٩ م، ص ١٤٩.

(٤٥) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٦٨٧. وللاستزادة في نصوص الداماد عن أصالة الماهية واعتبارية الوجود يراجع هذان النصان:((الوجود متقدم على لوازم الماهية تقدما بالماهية وليس داخلًا فيما تستند هي إليه)). محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٦٨٨.

فقرر الداماد أنَّ الأصالة في الإمكان للماهية دون الوجود بلحاظ العقل:((وأما الإمكان..... أنه أول مراتب الذات بحسب سنخ جوهر الماهية، لأن الممكن ليس بما هو موصوف بالإمكان بمتأخر عن تأثير المؤثر، وإنما يتأخر عنه بحسب تقرره أو بطلانه المتأخرين في لحاظ العقل عن نفس ماهيته وسنخ ذاته، وهما اللذان بسببهما يحكم على سنخ جوهر الماهية بالاحتياج إلى المؤثر، ثم إلى علة الاحتياج..... إنَّ الشيء أي مفهومه بما له من الماهية التقديرية في عقل ما، ما لم يجب لم يتقرر أي ماهيته الحقيقية، وما لم يتقرر، لم يصلح أنْ يحكم عليه بالوجوب السابق، وما لم يصح أنْ يحكم عليه بالوجوب، لم يوجد)). المصدر نفسه، ص ٤١٧.

ونجد أن الباحث المعاصر كمال الحيدري قد قام بتقديم شرح وافٍ للعلاقة بين الوجود والماهية، وحلل الترابط بينهما، فقرر أنَّ الوجود حينما يتخصص بالماهية فهذا لا يعني أنه متأخر عنها، بل أنها تارة تخصصه في الواقع الخارجي، وأخرى تميزه عن غيره في عالم المفهومية والذهن، فهذا لا محذور فيه، وذلك لأنَّ ارتباط الإنسان بالخارج إنما يتم من خلال الماهيات لا الوجودات، كما هو مقرر في مبحث الوجود الذهني في علم المنطق، فالجسر الذي يربط الذهن الإنساني بالخارج إنما هو الماهية وليس هو الوجود نفسه، لذلك يأنس الإنسان الماهيات في وجوده الذهني، أكثر من أُنسه بالوجود، فيجعل الماهية هي الموضوع، في القضية المنطقية(الموضوع والمحمول)، والوجود هو المحمول، فيقول مثلًا:(الإنسان موجود)، وهذا ما يجعل الذهن يعتبر الماهية هي الأصيلة والوجود عارضًا عليها، متميزًا من خلالها. ينظر: كمال الحيدري، دروس في الحكمة المتعالية: شرح كتاب(بداية الحكمة) لمحمد حسين الطباطبائي(١٣٢١ - ١٤٠٢هـ = ١٩٠١ - ١٩٨٢ م) صاحب تفسير (الميزان)، ج ١، مؤسسة الإمام الجواد - عليه

السلام ـ للفكر والثقافة،(د.ط)، قم المقدسة، إيران، ١٤٢٠ ه = ٢٠٠٠ م، ص ٢٤٨.

والذهن حينما يعطي التقدم للماهية على الوجود، فهو إنما يشير إلى إثبات وتحقق الماهية أولا قبل عروض الوجود عليها، فمثلاً: الجسم أبيض، فإنه لابد من تحقق وجود الجسم أولاً ليتصف بالبياض ثانياً، وهذا التحقق والثبوت للماهية إما هو نفس الوجود المحمول(البياض مثلاً) أو غيره، فان كان نفس الوجود المحمول، يلزم أنْ يكون المتقدم(الجسم) متأخراً وبالعكس، وهذا محال لأنه يلزم الدَّور، وإنْ كان غيره فيكون وجوداً آخر للماهية. ينظر: كمال الحيدري، دروس في الحكمة المتعالية، ج ١، المرجع السابق، ص ٢٤٩. وبهذا تكون الماهية متأخرة عن الوجود في الخارج، عارضة عليه، وذلك لأنها متحققة وثابتة في الوجود الذهني، وكل من التحقق والثبوت يلزمان أنْ يكونا موجودين.

ولكي يتبين مفاد العَلاقة بين الوجود والماهية، يتقرر موضوع عدم ترتب الآثار للموجود على الماهية بالوجود الذهني وحاصله: أَنَّ الإنسان حينما يكون موجوداً في الخارج، ويصح أنْ تفرض فيه أبعاد ثلاثة لأنه جسم، وذو نفس نباتية وحيوانية وناطقة، ونامٍ، وحساسٍ، ومتحركٍ بالإرادة، وناطق، فهذه كلها أَجناس وفصول وخواصها تظهر معه على شكل آثار، ولكن الإنسان الموجود في الذهن، المعلوم لنا إنساناً ذاتاً وماهية، واجدٌ لحد الإنسانية، غير أنه لا يترتب عليه شيء من تلك الآثار الخارجية، فلو كانت الماهية أصيلة والوجود اعتبارياً، وتعقلنا مثلاً لمفهوم النار للزم أنْ تأتي آثار النار الخارجية وهي الإحراق والحرارة والإضاءة وغيرها، وكذلك الآثار الخارجية للإنسان، إلى الذهن، وهذا يعني أنَّ الماهية تكون منشأ هذه الآثار الخارجية وسبباً في إيجادها، والتالي باطل جزمًا لأنه خلاف الفطرة والوجدان، فالمقدم مثله. ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٠٠ – ٢٠١، فثبت أنَّ الوجودَ أصيلٌ.

(٤٦) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٤١٤. وللاستزادة عن مسألة الواجب والممكن يراجع: محمد باقر الداماد، تقويم الإيمان، ص ٢٠٢.

(٤٧) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٤٢٩.

(٤٨) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ١١٨.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥٧٧.

(٥١) محمد باقر الداماد، الإعضالات العويصة في فنون العلم والصناعات، الناشر: مؤسسة تحقيقات ونشر معارف أهل البيت ـ عليهم السلام(د.ط)، إيران،(د.ت)، ص ٨.

(٥٢) محمد باقر الداماد، الأفق المبين، ص ٦٨١.

(٥٣) محمد باقر الداماد، تقويم الإيمان، ص ٢٠٣.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٥. وللاستزادة عن أقسام الجواهر والمقولات التي تقع تحت العرض، يراجع: المصدر نفسه، ص ٢٠٥ وما بعدها.

Mohammad Baqir Al-Damad and his Views with Respect to Divinities

Dr. Riyadh Suhaib Roudan

Abstract

The Islamic philosopher Mohammad Baqir Damad is a brilliant philosophical and intellectual figure who appeared in the field of Islamic philosophical thought in Iran during the Safavid era and was an encyclopedic philosopher who made a clear contribution in varieties of sciences. The reader of Muhammad Bagher Damad›s valuable writings would find a plethora of philosophical and theological concepts and terms (the exalted discourse of theology, the precise discourse of theology, etc.); the concept of 'the exalted discourse of theology' would require a special kind of reading or understanding. The present study is concerned with 'Divinities'، a branch of theology as tackled by Damad. This branch is part of what Damad subsumes under 'the exalted discourse of theology', thoroughly exploring it in highly-minded methodology and in a way that indicates a great mentality in comprehending and addressing the problems arise in this area of research. The aims of the present study can be seen in that (first) it is an attempt to discover aspects of Damad's theology-directed methodology, and (second) in the question: how does he approach those aspects in terms of his brilliant school of thought?

Keywords: fundamentals of religion, theology, unification, justice, prophethood, imamate, resurrection, existence by force, existence by act, cause and effect, essence and accident